غريب في الحارة

عثمان عمر الشال

غريب في الحارة / قصص

عثمان عمر الشال

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

حسام مصطفى إبراهيم

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠٢١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠١٦- ٣

غريب في الحارة

قصص

عثمان عمر الشال

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

اكتب

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع



إهــداء

إلى أمي.. التي احتضنتني في مهدي وطفولتي

إلــيها.. في شبابي ورجولتي وكهولتي

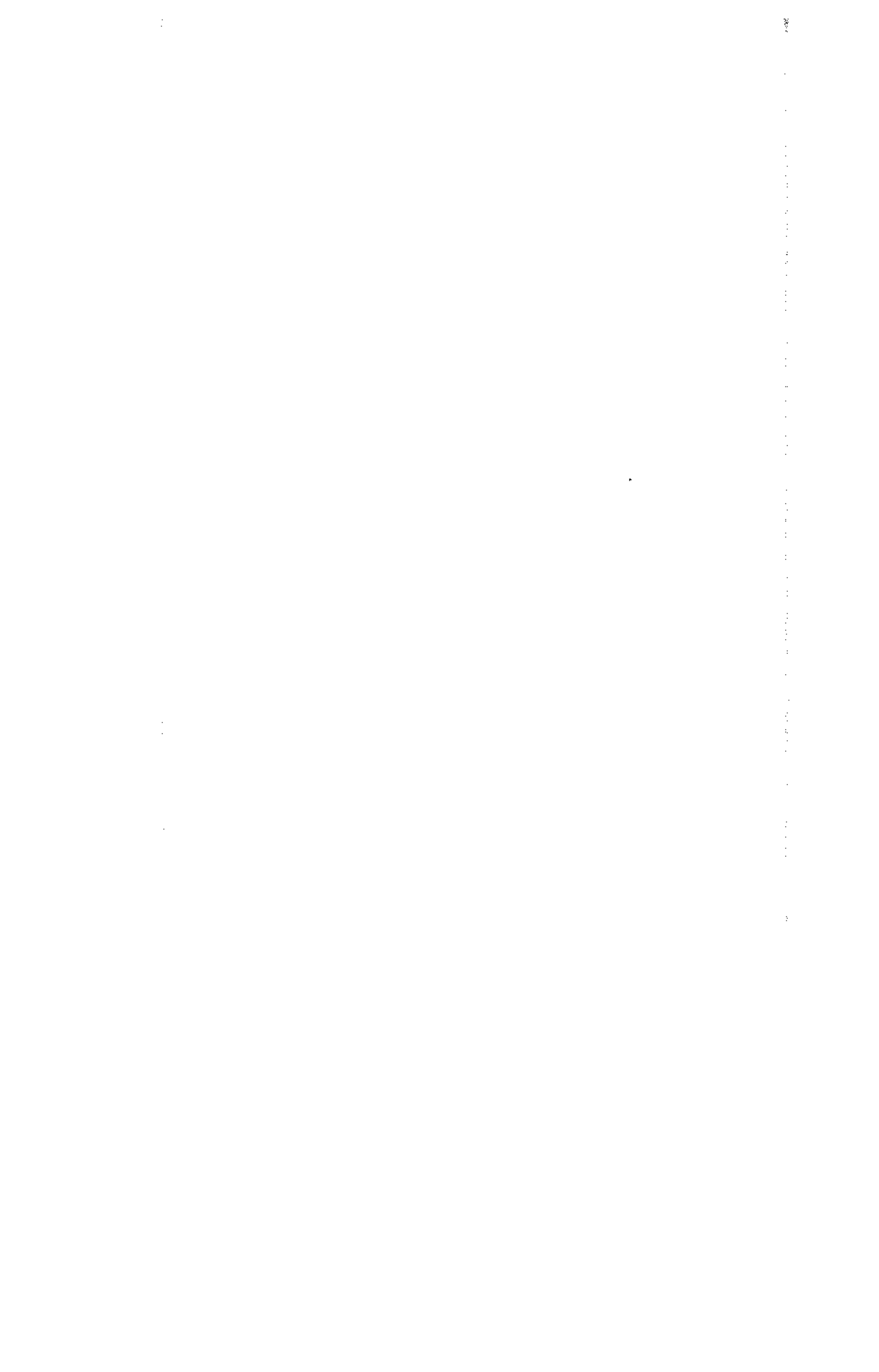
إلى كـل مــن أحبوني في فرحتي وغضبتي

إلى كل من أعانوني في تقصيري وعند قوتي

(إليهم، وإليكم أهديكم كل حبي ومجموعتي)

المؤلف

ابن مسعودة



لا أحد يعلم من أي البلاد جاءت.. كان هـــذا في شـــهر رمضان.. القرية ديارها وسكانها قليلون.. كل التفصيلات فيها معروفة.. عدد مواليد العام فيها لا يزيد على عـــدد المـــوتى.. كُتاب الشيخ (محمد سيف الدين) يستوعب كل أطفال القرية، ومدرسة الكفر الابتدائية لا تبعد عن الديار بأكثر مـــن كيلـــو متر.. من يلتحق بمدارس المركز نفرٌ قليلٌ..

ومن يكمل التعـــــــــــــليم الجـــامعي لا يتعـــدى أصابع اليد الواحدة.. زمام أراضي القرية يكاد يكون معدومًا.. الأكثرية من أهل القرية يعملون بأرض الوسية.

قبل أن يميل قرص الشمس للمغيب.. جلستْ تحت التوتـــة الواقفة عند قنطرة (التيار) والكبرى الخشبي الواصل بين بيوت القرية وبّر (الزراعية).. جلستْ تهدهد وليدها من عناء المسير..

نسوة القرية عادة ما يتجمّعن في مثل هذا الوقت كل يـــوم حول (أم زين) بائعة الخضار، وعم (محمـــود الطـــرى) بـــائع الطماطم والخيار الصابح..

ابتاعت كل منهن ما أرادته وانـــصرفت لـــدارها، دون أن تلتفت للجالسة تحت شجرة التوت تهدهد وليدها..

الشيخ عبد السلام {المؤذن} يجر في ساقيه بصعوبة بالغـــة على عكازه الخشبي قاصدًا المسجد..

في طريقة ألقى بالسلام على الجالس تحت الشجرة..

ترد بصوت خفيض..

يلتفت ناحيتها.. يقترب منها.. الأخت غريبة؟؟

ترد..............

كلنا يا عم غرباء على هذه الدنيا!!

- من أي البلاد أنتِ؟

من أرض الله الواسعة!!

- هذا ابنك؟

نعم!!

- ما اسمه؟؟

أحمد!

- وما اسمك؟؟

هيه.. خدامتك مسعودة!!

- أهلا وسهلا بك يا أخت مسعودة.. اتفضلى (يلا.. قومى معايا).

تقف (مسعودة) وتحمل (الصُرّة) فوق رأسها وبين يديها رضيعها، وتسير بخطوات رتيبة خلف الشيخ العجوز، حتى نهاية ديار القرية من الناحية الغربية..

يطرق الشيخ باب داره بكعب عكازه..

وينادى..

(مبروكة.. يا مبروكة افتحى.. معايا ضيفة).

ثم يقول لها: اتفضلى يا أخت مسعودة..

(معلش أنا راجع علشان ألحق رفع أذان المغرب في ميعاده.. ادخلى إنتى).

تخرج (مبروكة) وآثار {الطبيخ} على يديها ورأسها العاري.. دون أن تعلم من بالباب.. أهلا وسهلا..

إحنا زارنا النبي يا أختي..

لم تجد على الباب أحدًا.. تنظر يمينا ويسارا.

فتجد امرأة جالسة بالقرب من (عــشة) ولاد (العوضـــي) الملاصقة للدار.. تصك صدرها..

(يا هـــــــــــــوووووي.. إيه ده.. يا حـــومتي مــا يصحش اللي إنتي عملاه ده.. اتفضلي يا أختي.. قومي خشي جوّه.. إنتي عاوزة الشيخ يجي ويبهدلني.. علـــشان خـــاطري قومي).

تفشل كل توسلاتها ومحاولاتها في إقناعها بالدخول للدار.. تدخل (مبروكة) وتعود بين يديها (صينية) بها ما لذ وطاب من أنعُم الله وتضعها أمامها وهي تقول:

لقد قرب آذان المغرب ولابد أنك صائمة.

***

الحاج (حامد العدوى) خطيب مسجد القرية في داره ينظر لساعة الحائط في استغراب.. يحدث نفسه (مش معقول) ثلاث دقائق مرت و(عبد السلام) لم يرفع الأذان؟

لعل المانع خير..

ينظر لأهل داره.. هيه.. افطروا يا أولاد.

((اللهم إني لك صمت وعلى رزقك أفطرت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر والثواب عند الله))..

بعدها يرفع الشيخ عبد السلام الأذان ويصلى الفرض ويسرج لمبة المسجد ويعود إلى منزله بسرعة ليتناول وجبة الإفطار مع أهله ويطمئن على ضيفته..

ما إن وصل إلى باب داره، حتى رأى الست (مسعودة) جالسة داخل (عشة ولاد العوضي)..

يتجهم وجهه ويرفع صوته ينادى على زوجته..

(مبروكة.. يا مبروكة) ويتجه ناحية المرأة بخطوات حثيثة (ده اسمه كلام يا ست؟.. قومى جوّه الدار.. مايصحش كده).

تفشل كل محاولات الشيخ، و(مسعودة) تأبى أن تدخل الدار.

انصرف الشيخ من أمامها ودخل داره وتناول لقيمات قليلة ثم احتسى كوبا من الشاي، ثم غادر داره متوجهًا للمسجد، حيثُ صلاة العشاء والتراويح..

بعد أن فرغ من الصلاة لم يبرح صحن المسجد..

قص حكاية المرأة الغريبة على مسامع الحاج (حامد العدوى).. الذي هوّن عليه الأمر ومضى معه حيثُ هي..

ألقيا السلام عليها.. فلم تنتبه.. كررا ما قالاه..

أفاقت المرأة واعتدلت من غفوتها (أيووووه).

يعرفها عبد السلام بالحاج (حامد) الذي حاول أن يستضيفها في بيته الفسيح..

لكن (مسعودة) أبت وأصرت على قضاء ليلتها في مكانها.

***

ما إن أشرقت شمس اليوم الجديد إلا وكانت حكاية المرأة على كل لسان.

تسابق أهل القرية في تقديم أفضل ما عندهم للست (مسعودة وابنها)..

قدّمت زوجة الحاج (على نصار) {الطاحونة القديمة} دارًا لـ(مسعودة) التي قبلت الإقامة فيها بصفة مؤقتة.

تمضى الأيام سريعًا والوليد يكبر، ويدخل كل ديار القرية على الرحب والسعة..

يزامل الصغار في كتاب الشيخ (محمد سيف الدين) ويرافق تلاميذ مدرسة الكفر الابتدائية..

(ابن مسعودة) الكل يعطف عليــه.. ولم يجــد في نفــسه غضاضة من هذه الشفقة.. و(مــسعودة) تــستقبل في حــب أنصبة الزكاة من أهل القرية بنفس راضية.

يتفوق (ابن مسعودة) في الشهادة الابتدائية ويحصل علــى المركز الأول على مستوى المحافظة..

وبرعاية الحاج (حامد العدوى) الــذي ألحقــه بالمرحلــة الإعدادية بالمركز، ليزامل ابنه (حسن) وإن كان ابنه يسبقه بعام دراسي، يشترى له دراجة مثل ولده.. يتفانى (ابن مسعودة) في صيانتها مثلما يتفانى في مذاكرة دروسه والعمل خلال الإجازة الصيفية.. حتى اشتهر من صغر سنه (بالمصيف البارع)..

والتصييف هنا ليس المقصود به التتره وقضاء أيام الــصيف على بلاجات الشواطئ الساحلية، وإنما هو جمع الفاقــد مــن المحاصيل الزراعية كعيدان القمح وسنابله من علــى الــسكك والأراضي التي حصدها أصحابها ودرسوا غلتها..

أو (لوزات) القطن الضامرة بعد أن جمع أصــحابها الأرض الصالح منها وكبسوه في أكياسه.

....

ثلاث سنوات (وابن مسعودة) متفوق في دراسته..

الأول على الدوام في المدرسة الإعدادية.

أخباره عادة ما تقصها الألسنة على مصطبة (عبـــد الـــنبي علام).. ولو حتى غاب عن العيون.

وها قد غاب ابن (مسعودة) حقًا.. وطالت غيبته..

ثماني سنوات من يوم أن حصل على الـــشهادة الإعداديـــة وسيرته لم تجف على الشفاه.

كثرت الحكايا حول (مسعودة) وابنها الغائب..

تقول بعض النسوة سرًا في القرية: -

أن (مسعودة) عندما عرفت طريق التجارة والتنقل بين البلاد وعواصم المحافظات باعت ابنها الوحيد لأحد رجـــال البنـــدر الأغنياء..

مثلما تعوّدت بيع الجبن والزبد والبيض البلدي!!

ترد عليها إحداهن مؤكدة.. وهى ترمي سمهـــا القاتـــل في الأذهان: -

{أمال.. اشترت دار (محمد المشد) منين؟}.

الحكاية مفهومة!!

***

لم يستطع أحـــــد أن يفض جراب (مـــسعودة) ويـــصل للحقيقة المؤكدة، و لم يجرؤ أن يسألها عن أخبار ابنها (أحمد)؟

وما إن يصل إلى مسامع الحاج (حامد العدوى) همس أو لمز عن (مسعودة) وولدها..............................

يصعد فوق المنبر ويحذر الجميع من الغيبة والنميمة..

فيقتل الهمس في مهده.

***

جاء الوقت لتعلق الزينات على دار الحاج (حامـــد) فابنـــه (حسن) حصل على بكالوريوس الهندسة منذ شهور.. واليـــوم يحتفل بنجاحه وخطبته على بنت (البوهي) أكبر تاجر ذهب في المركز..

بينما كان(حسن) يمصمص الـــشفاه علـــى زميلـــه (ابـــن مسعودة) وغيبته الطويلة وهو يقول:

لو.. ولو.. لو استمر معي لكنا.. وكان..

في ذات اللحظة، تأتى إشارة من المركز لشيخ القرية الحاج (حامد العدوى) قرأها الباشمهندس (حسن):

-{ في الرابعة من بعد ظهر الغد الاثنين الموافق١٥ أكتـــوبر من عام ١٩٧٣ يصل جثمان الشهيد رقيب متطـــوع (أحمـــد

محمـــد عثمـــان أصـــلان) في جنـــازة عـــسكرية يتقـــدمها السيد/............

محافظ الإقليم نيابة عن الـسـيد/ رئـيس الجمهوريـة..... والسيد العميد/ مأمور المركز نيابة عن السيد /المـشير وزيـر الدفاع}.

تعجّب أهل القرية من الإشارة!!

تحيروا من مفرداقا.. فهم لا يعرفون عائلة (أصـلان)، ولا توجد في الناحية عائلة بهذا الاسم..

يسألون الحاج (حامد العدوى) عن هذه العائلة؟ ومن هـو المدعو (أحمد أصلان)؟

ما إن علم الحاج (حامد) بمفردات الإشارة حتى خـرّ مـن طوله مغشيًا عليه..

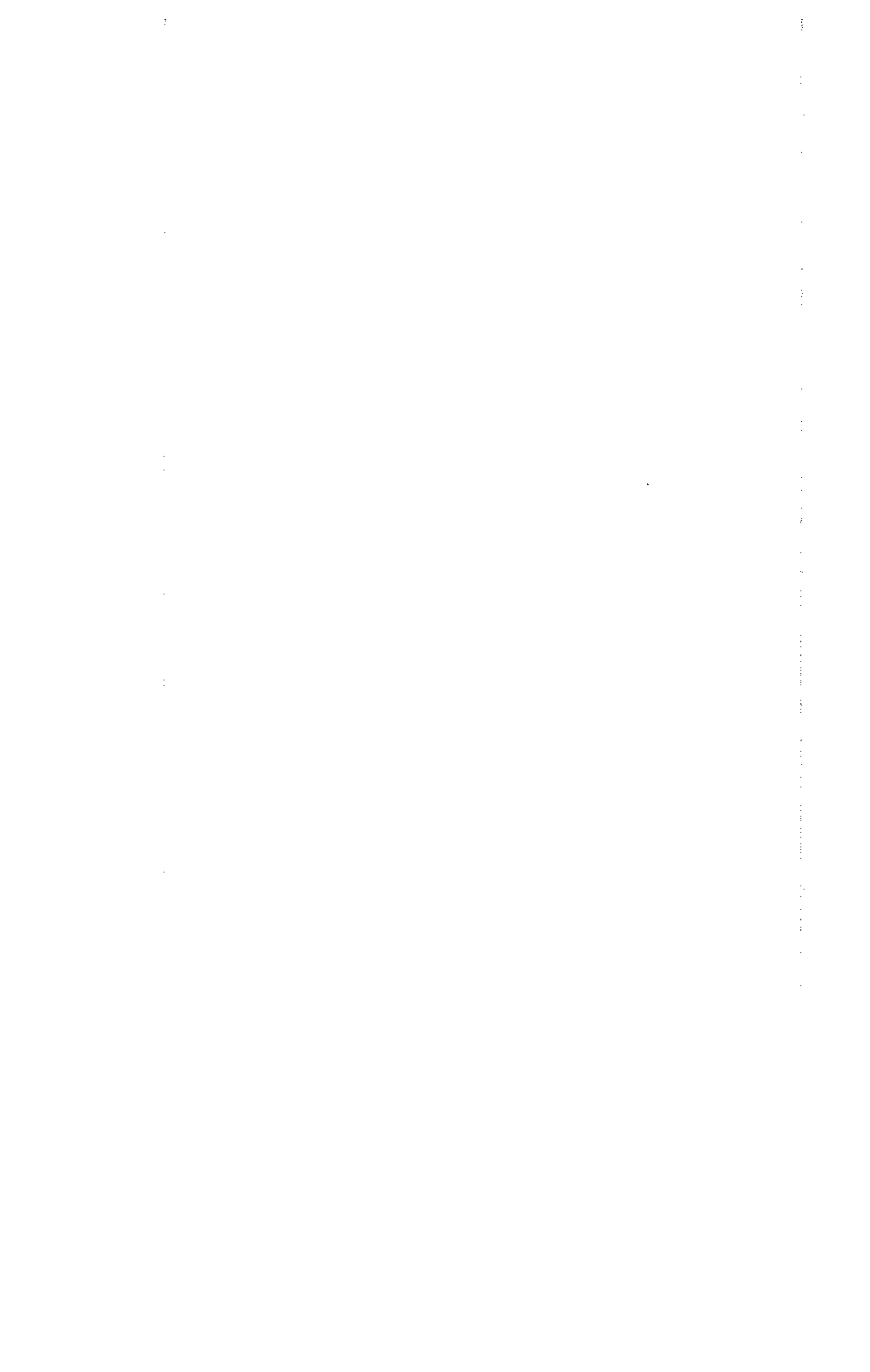
بعد أن أفاق من غشيته أخذ ينتحب نحيبًا يزلزل القلـوب والأفئدة، وهو يردد:

(إنا لله وإنا إليه راجعون.. لا تحسبن اللذين قتلوا في سـبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون}..

في جنة الخلد يا (ابن مسعودة).. هنا فقط خيّم على القرية ألوان شتى من الحزن، وحط طائر الذكريات بجناحيه.. أعـلاه

مقعده في كتاب الشيخ (محمد سيف الدين) وأدناه ما كان يطلق عليه من ألقاب عدة.

(ابن مسعودة.. المصيف البارع.. ابن مسعودة صائد الدبابات.. ابن مسعودة بطل حرب أكتوبر.. ابن مسعودة بطل حرب العبور.. ابن مسعودة من أعاد العزة والكرامة للأمة.. ابن مسعودة.. ابن مسعودة).



أبو النطيط

كان الجو صافيًا والسماء تتلألأ فيها الأضواء، و{الراكية} تحتضن إبريق الشاي في حنوٍ غريب، والنسمات الطريّة تداعب خدود (سوسن) محبوبتي فتكسبها تألقًا على تألقها.

عندما سمع صوت ارتطام يقع عند الساقية المهجورة القريبة من جلستنا..

انزعج من كان يجلس بجواري وأصابه بعض من التوتر، كما سرتْ رعدة في جسد زوجة خالي النحيل.

سرعان ما استطاعت السيطرة عليها حتى لا تسرى إلى قلب محبوبتي فتفشل الجلسة التي ظلت تُعد لها وتنتظرها منــــذ زمــــن طويل..

بهدوء الواثق، (تنحنح) خالي ونطق بحروف متأنية: {الساقية هذه.. مهجورة من زمن بعيد، وبئرها يكاد ماؤه يجف.. فمن أين جاء هذا الارتطام؟}

حاولت أنا أن أقفز فوق السؤال وأبادىء خالي بما أريده..

في نفس اللحظة مرّ علينا فتى عوارضه وافية..

يركض بطريقة عجيبة في البر الثاني لجلستنا (بر الزراعيسة) صوت لهاثه يرج الأرض من تحت أقدامه..

مرق علينا وكأنه لم يحس بوجودنا.. ناغاه من كان يجلس بجانبي..

– فيه إيه؟

لم يكترث بما سمع ومضى في عدوه ناحية ديار القرية التي نحن على أطرافها..

حيثُ دار خالي على أطرافها..

كان عدوه يلفت النظر..

لا يختلف كثيرًا عن شخص (يحجل) على أطراف قدميه مثل {أبو النطيط}..

بعدما غاب خيال الفتى عن جلستنا عزمت الرجوع لما كنت عليه قبل (تنطيطه)..

اختلست نظرة خاطفة من عيون (سوسن) تكون زادي وعوني في مفاتحة خالي وطلب يدها، ولكن سدى..

عاد الفتى بركضه العجيب من ناحية الديار النائمة كأهلها متجهًا ناحية (الساقية المهجورة) وبين يديه كشاف{بطارية طورش}..

في لحظة يضيئها والأخرى يطفئها..

دبت حالة من القلق على مجلسنا..

قطعت امرأة خالي السكون الذي يكاد يخيم علينا ووضعت {عزال} الشاي عند ركبتي خالي وقالت له بصوت خفيض:

{الشاي قرب يقطع نفسه.. الشاي طاب يا أبو عادل}.

في هذه الأثناء، كانت تقترب سحابة داكنة من صفحة قمر السماء يكاد ظلها ينسحب على وجه قمر الأرض (سوسن).

حتى سمع الجميع وقع دوى ارتطام آخر..

الارتطام هذه المرة كان أقوى..

لم تمض ثوان قليلة وكان صوت نباح يلف المكان، والفتى يعود لركضه (المتحنحل) ناحية القرية..

فجأة هب من كان يجلس بجانبي واقفًا.. {زعق} بصوته الأجش..

– يا... لم أنتبه للاسم الذي ناداه به.. لم يتوقف الفتى للنداء وكأن أصابته حالة من الصمم وزاد من سرعة عدوه..

سعلت (سوسن) سعلة جافة.. فهمت منها ماذا كانت تريد أن تبوح به..

ناولتها أمها {قُلّة} الماء رشفت منها رشفات قليلة، ثم أكملت (اللهم اجعله خير).

تمتم خالي بكلمات لم يسمعها أحد وراح يصب الشاي المغلي وهو يقول:

{يا خبر بفلوس.. بعد شوية ح يبقى ببلاش}.

هنا وقف من كان يجلس بجانبي..

ترك {كُبّاية} الشاي واتجه ناحية (القنطرة) المضروبة على عرض الترعة الضيقة أمامنا.

انبطح على الأرض.. مدد ساقيه الطويلتين بعرض الزراعية، وانتظر عودة {أبو النطيط} وهو عازم على أن يوسعه ضربا..

انقضت فترة طويلة والفتى لم يعد ثانية..

بينما كانت السحابة القاتمة قد تملكت من قمر السماء تمام، وغطّت وجه محبوبتي..

عندها لملمت امرأة خالي {عزال الشاي} معلنـــة انتـــهاء السهرة..

في حين كان خالي يزر بعض قطرات الماء البـــارد ليخمـــد نيران (الراكية)..

ساعتها لم أدر إذا كانت القطرات التي تطايرت كانت من بين أكف خالي؟

أم أنها كانت تنهمر من مقلة محبوبتي (سوسن)؟

حقًا أُخمدت النيران في (الراكية).

ولكن تأججت في قلبي..

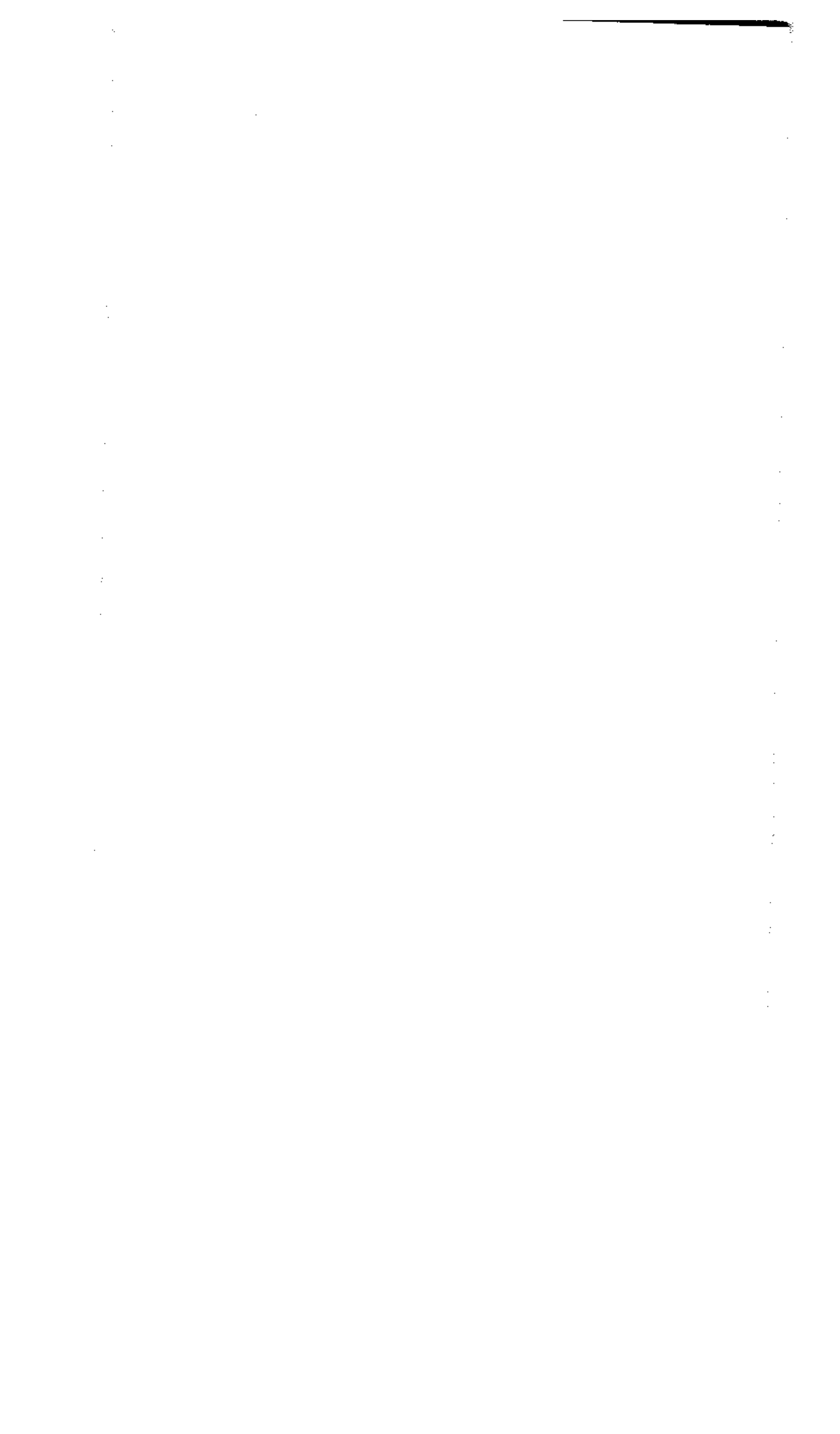
في البر الثاني وفى طريق عودتنا همس في أذني من كان يجلس بجانبي.. وضغط على يدي..

لا تبتئس فإن حمايا يفهم الموقف جيدًا.

وأن الفتى الذي قضى على هذه الليلة مجرد حالة عـــابرة.. مثله مثل (أبو النطيط) لا يقدر على أكثر من هذا.

***

محمية طبيعية



أبدًا..

أبدًا لم أكن في يوم من الأيام طويـل القامـة أو عـريض المنكبين، و لم يكن لي ظهر أتكئ عليه.. فـذراعاي في أغلـب الأحيان قصيرتان.. وفي الكثير منها مغلولة إلى عنقي، وعظـام رأسي نخره السوس من زمن بعيد..

كما أن أبي مات كمدًا من كثرة التطواف علـى المـوانئ الغارقة في بحور اليأس وسياحات الملح الفاسد، والشهور تمضي أيامها على من هو مثلي ثقيلة، ثقيلة.. وكم حاولـت لأيـام طويلة (التشعلق) بالأبواب المتخمة بالدهن واللحم التي تنـضح منها رائحة الشواء.. لعلى أصل في يوم لشيء يجعل منى شخصا مرموقا عندهم.. أو نفرا ذا حيثية عند الكادحين مـن قـومي ويسد جوع أمعائي الصارخة على الدوام.

لكن الأبواب كلها استعصمت، وأغلقـــت متاريـــسها في وجهي و لم تفتح ولو لحد المواربة..

قررت من بعدها الرحيل وحيدًا وقضاء ما بقى لي من أيـــام في الخلاء البراح.. حتى لا يتكسر نظري بسقف حجـــرة ضيقة خانقة أو ظل حائـــط هـــار، ويكون دعائي خالـــصًا لوجـــه الله.. كي أتطهر من ذنبي وأعود من بعدها لقطيع الكـــادحين من قومي، أنعم مثلهم بلقمة العيش المغموسة في نيران الـــسادة الحكام..

ذهبت منفردًا إلى بقعة من الأرض جرداء قاحلة.. كل مـــا فيها رمال في رمال.. لا زرع ولا ماء.

ضربت بكل ما أملك من خرق بالية وعصى كنت أختـــال بها على الناس في أيام سابقة..

ضربت خيمة لا تتسع لغيري، وارتضيت الإقامة على وضع القرفصاء.. والنوم على جنب واحد.. قانعًـــا ببقايـــا الطعـــام الحامض والماء الآسن إلى أن يحين الأجل..

دون مقدمات، جاءني شرطي تكاد أكتافه تتهدل من كثرة النياشين والأوسمة التي حصل عليها في الزمن الرديء..

سألني بصوت أعرف نبراته..

- ما اسمك؟

قبل أن أشرع بالإجابة..

كان قد تلا عليّ قائمة الاتهامات المدوّنة عنده سالفًا، وسرد عليّ تاريخ حياتي وكل تفصيلاته الخاصة منها قبل العامة ومنذ الجد الرابع حتى الساعة..

لم أعقّب.. فالسجلات سجلاتهم والرقم القومي يملكون ناصيته وكلها عندهم صادقة لا تكذب!!

هذا ما كنت تعلمته في مقدمة الدرس الأول..

وأنا في طريقي (للتشعلق) بالأبواب المتخمة بكل ما لذ وطاب!

استعطفته أن يدلني على ما يجب أن أصنعه حتى لا أقع تحت طائلة قوائم الممنوعات والمحظورات التي ترمي بصاحبها إلى ما وراء الشمس، والسراديب التي تفضي بصاحبها لغياهب الظلمات وطريق اللا عودة.

تبسّم الشرطي أو كاد يفعل حتى ظننته رق لحالي.. وقبل أن أسترسل في أحلامي.

رماني بنظرة نزعت عن جلدي المهترىء الخيمة التي كانت تؤويني من أوتادها.. ذرّها في الفضاء من حولي..

دون إرادة مني، سالت عبرة من عيني تركـــت في وجـــنتي أخدودا ليس له قرار..

سخونة العَبرة أغاظت الشرطي في وقفته..

مد يده الغليظة نحوى.. أمسك بناصيتي.. لطخها في دمائي السائل على الرمال الباردة.. رفعها لأعلى و(نفضها) كما تفعل (ست البيت) بسجادة بيتها..

طبعها على ما كان يحمل من أوراق بيضاء على الجنبين، ثم قذف بها بعيدا عنه حتى لا تتسخ بزّته الميرى، وقبل أن يتركني قال ثلاث كلمات:

{إياك والعودة لمثلها!!}.

ثم مضى.

حمدت الله أنه مضى وتركني في مكاني ولم يزل فيّ شـــيء ينبض..

قبل أن يمضي الليل، كنت قد حفرت في الرمال من تحـــتي خندقا على مقاسي واقفا..

الخندق يغطّيني من أعلى رأسي لأخمص قدمي..

تاركًا العوامل الجوية المحيطة تصنع من بعدها ما تشاء..

في آخر الليل غلبني النوم..

نمت..

لم أعلم مقدار عدد السنين التي نمتها؟؟

عندما صحوت واستيقظتْ حواسي..

كانت المنطقة من حولى وعلى مساحة شاسعة، مــضروبا عليها سياج، سُورُه شاهق الارتفاع..

نظرت بعينى التعبة في كل اتجاه.. كانت الخنادق متراصــة بكل موضع.. وفى أعلى بقعة من السور علقت (لافتة) مكتوب عليها ببنط عريض وبخط الرقعة.

هنا تقع........

{محمية الخنادق.. خنادق الذين عدلوا عن التشعلق بالحبال البالية.. وأبواب النخبة من السادة الحكام}.




هـــالة



سائرًا في طريقة المعتاد من سنين.. يحمل فوق رأسه الأحمال الثقال.. كل من رآه ينظر إليه بنظرة المستنكر!

- لم يبال..

المهم أن يبقى بجانبها..

في هذه الأثناء، كان يلتهم الفطيرة الذي منحها له (نبيـــل) الفطاطرى بالشارع الخلفي.

يوشك أن يُجهز عليهـــا قبـــل أن يـــصل إلى (المجـــزر).. آه لو شاهدته (هالة) على هذه الشاكلة..

لكان لها معه شأنٌ آخر..

على ناصية الحارة الموصلة للمجزر، مسح {برغوت} فمـــه بظهر يده؛ حتى لا تظهر عليه آثار الأكل..

كانت (هالة) واقفة على باب المجـــزر واضـــعة يـــدها في خصرها ترتقب وصوله، هكذا أطلقوا عليه هذا الاسم لـــضآلة جسمه وخفته في الحركة و(التنطيط)..

ما إن وقف أمامها حتى كالت له كل البـــذاءات المعروفـــة وغير المعروفة في قواميس اللغة.

و(برغوت) يبتسم فرحًا..

وضع حمله عند قدميها، واختلس نظرة من سمانـــة ســـاقها البضة وراح يمصمص الشفاه، ويمنى النفس بأشياء لـــيس لهـــا حصر..

لمحته (هالة).. فما كان منها إلا أن ركلته بإحدى قـــدميها، فانطرح على الأرض..

استلقى على ظهره أكثر وثبّت إحدى عينيه على صـــدرها المنتفخ..

ناولته بالقدم الثانية.. أطلق للجو ضحكة عالية وهو يقـــول {ضرب الحبيب زى أكل الزبيب}..

بصوت أكثر حدة، نادت (هالة) على (فتح الله) وقالت له: {استلم من هذا المخبول كل عهدتـــه وارمِـــه في الـــشارع} يضحك (برغوت) وهو ينط ويقفز في الهواء..

خلاص أنا بقيت حـــر!!

من النهارده لن تستطيعي أن تـــسخري مـــني أو تكيلـــي الضربات.. في صباح اليوم التالي، كان (برغوت) قبل طلـــوع الشمس يقف عند ناصية الحارة..

جلبابه يشف ويرف ينتظر قدوم (هالة).

انتظر لما بعد الظهر.. لم تأتي..

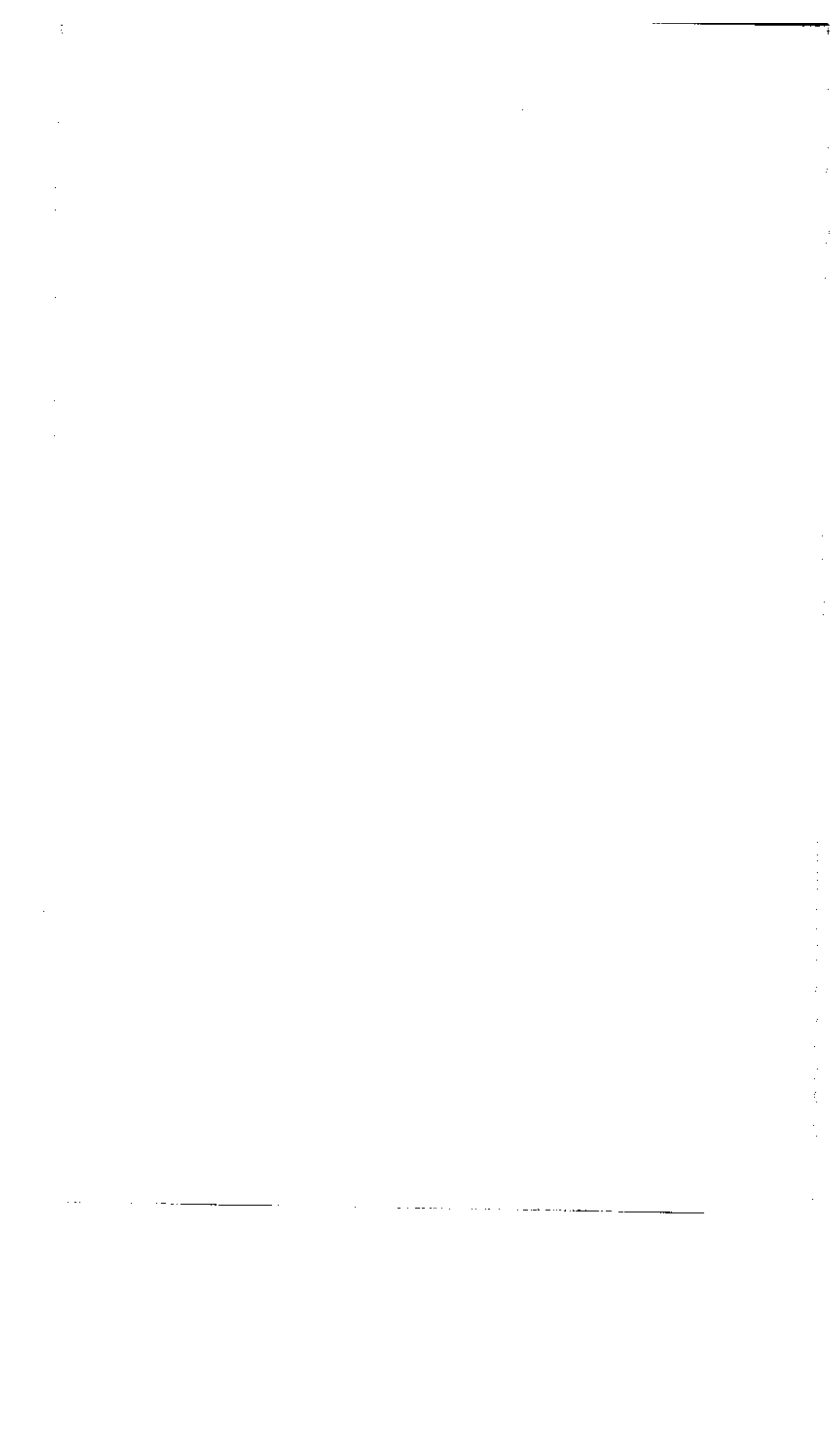
سأل كل من ترمقه عيناه عن السبب؟

الجميع أجمع على إجابة واحدة..

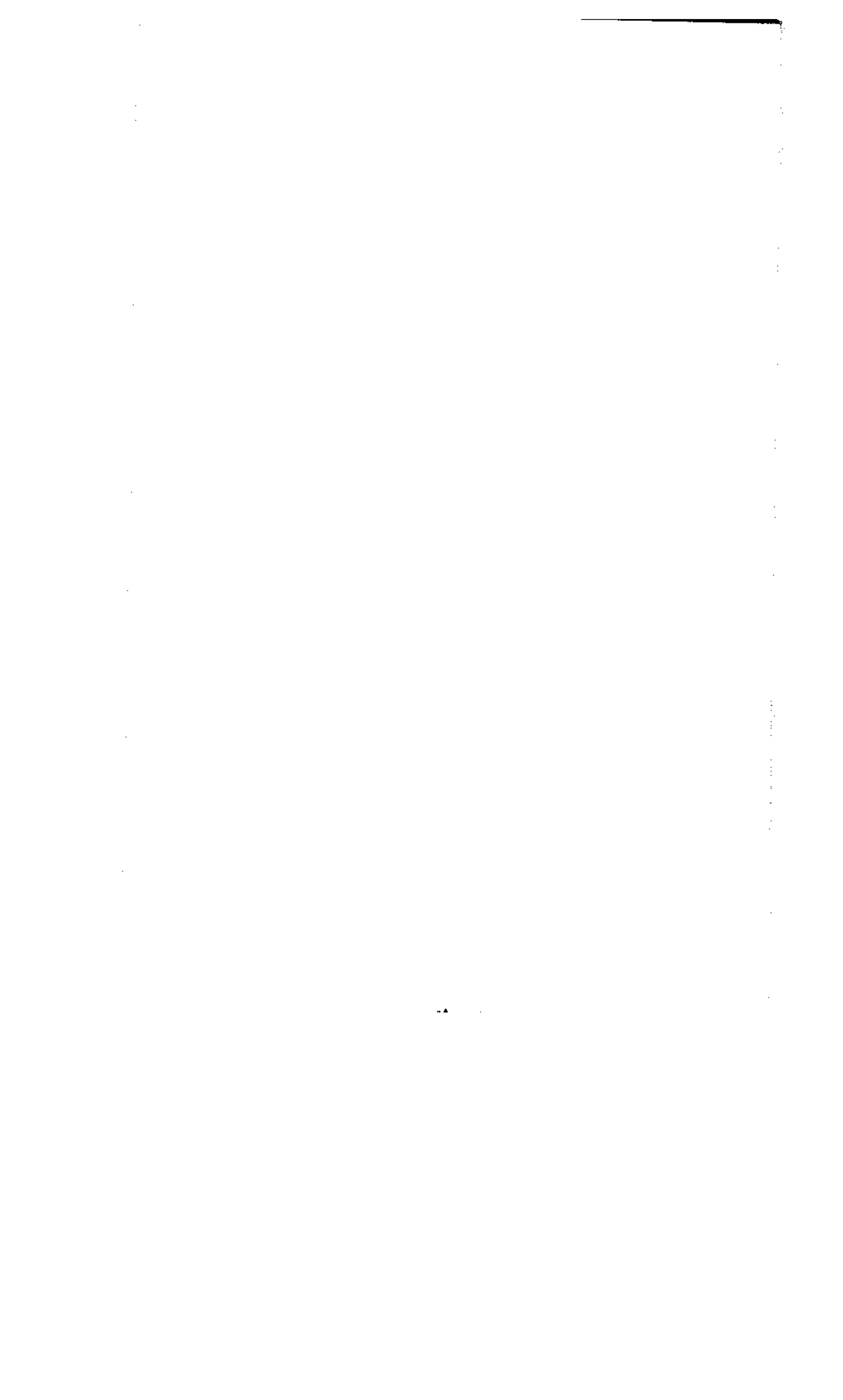
(هالة) تركت العمل لولدها ولن تعود ثانية.

فقدماها لم تستطيعا حملها بعد أن ركلت بهما.

من كانت تحبه وتهواه.



ابن مين؟



لم يكن يدرى أن قلبه ينطوي على هذا القدر من الشجاعة، وأن المداخل جميعها تنتهي عند خط واحد.. قرر العبـــور.. في البداية حاول السيطرة على أقدامه المتـــوّرمة من أخمصها حتى عظـــمة الذراع.. تحـــرّك ببطء.. تلمس بحذر أكبر عتبـــات المدخل الكبير.. ما إن بلغه وشم رائحة الشواء النافذة من بـــين حلقاته الحديدية حتى تعثرت أقدامه بالواقف هناك.. ألقى عليه التحية..

فما كان منه إلا أن قذف به بعيدًا ليعود لنقطة البدء..

بعد شهور.. كرر المحاولة..

بعد أن رفع عن عينيه عصابة الإخفاق والتردد السابقة..

عبر الطريق من أمام المدخل الكبير بالعرض..

لم تستوقفه هذه المرة إشارات المرور المنكفئة على نفسها من سنين، و لم يكن أحد عند الباب الخارجي..

انطلق في اتساع الشارع مفرود الأوداج.. ابتسامته تفـيض على (بلدورات) الأرصفة بشرًا وحنانا..

أصبح الآن على بُعد خطوات قليلة من محبوبته..

برفق مد يده ناحية الباب..

قبض بكل ما يملك من عزيمة على المقبض..

عصره يمينًا ويسارًا لم تسقط منه قطرة ندم واحدة.. وجدها فرصة سانحة..

التصق بكامل صدره العاري بحلقات الباب لعلـه يـسمع نبضات قلبه المشتاق فينفتح على الضلفتين..

جذب الباب إليه برفق أكبر، حتى لا يصرخ فينتبه العامة.. لكن الباب أصر على عناده..

دفعه بغيظ بعيدًا عنه.. كان الباب مفتوحًا.

***

في جرأة (يحسد عليها) مـد عنقه بكامل هامتـه مـن خلال الفتحة التي سمح بها الباب.. ثم أكملها ببـاقي جـسده النحـيل.. انزلق للداخل.. لم يدفعه لهذا غير شوقه.. للحظـة كان يتوقع أن محبوبته تنتظره خلف الباب..

أبدًا لم تكون هناك.. دلف ببطء شديد..

بعد خطوات معدودة خطاها، وجد طرقات كثيرة ممتـــدة أمامه.. الطرقات تتقاطع بطرقات أخرى، وكلها تخترق حديقة صغيرة..

الحديقة يعشش بين فروع أشجارها البوم والغربان..

لم يكترث!

على الجانب الآخر، كانت هناك بناية فاخرة بباب واحد.. أمام هذا الباب (دوّاسة) كبيرة صُنعت من حديد سميك.. عند حافتيها يقف حارسان.. الحارسان يحملان فـــوق أكتافهمـــا ضعف وزنيهما ريبة وخوفا من كل القادمين، وبين أيـــديهما قائمة تعليمات نافذة..

- حمد الله أنه يجيد القراءة -

(حـــك) قدميه بأسياخ (الدواسة) جيدًا حتى لا يـــصاب أصحاب القصر بداء الـــدّوار..

تذكر أنه لم يرتدِ يومًا نعلا يتحمل كل هذا الاحتكـــاك.. سالت الدماء من قدميه.. ملأت {البيّارة}..

عندها أوقفه الحارسان على ساق واحدة لساعات طويلـــة، حتى تجف الدماء من تحت الـــدّواسة.. غير أن البـــاب كـــان مفتوحًا.

جفت الدماء بالخارج، فكان هو بالداخل.. داخل البهو الكبير.. لم ينتبه للواقفة بجوار الشباك المطل على الشارع الخلفي في آخر الردهة..

قذف بنفسه عند أول أريكة قابلته.. الأريكة نفسها لم تُحسن استقباله..

أحس للوهلة الأولى أن أصحاب القصر حشوها بخليط من الإبر والأشواك النادرة.

قال في نفسه وهو يبحث في هذا الجو الخانق عن نسمة هواء رطبة تصلب عوده:ـــ

(لأجل الورد........................).

لم يمكث طويلا في جلسته.. دقائق معدودات.. وجد بعدها من يقف فوق رأسه.. إنهما الحارسان اللذان كانا يقفان عند حافة (الدوّاسة) الحديدية.. ولكن هذه المرة كانا بثياب غاية في الأناقة.

أجلساه بالقرب منهما وراحا يسألانه: -

من أنت؟

ومن أين أتيت؟؟

من دلّك على قصرنا؟؟

من أبوك وأمك؟؟

ابن مين في البلد حتى تأتى لتطلب يد كريمتنا؟؟

....

قبل أن ينطق بكلمة واحدة، لمح بطرف عينيه الواقفة بجوار الشباك تزرف دمعة وتكتم أخرى.. أكمل النظرة لآخرهـــا.. وقبل أن يفرغ، كان قد حــــــدد لنفسه أقصر طريق للفرار.. فالأبواب كلها كانت مفتوحة.

***

بعد مضى سنين ليست بالقصيرة.. وذات مساء.. كان يعبر الشارع من أمام القصر.. وكانت امرأته تتأبط ذراعـــه وتجـــر خلفها ابنته وابنه.. نظر ناحية المدخل الكبير.. كـــان البـــاب مفتوحًا على الضلفتين يكشف ما بالداخل.. وكان الحارســـان ثابتين في مكانهما عند الدّواسة الحديدية، و{نعيمـــة} بجـــوار الشباك المطلّ على الشارع الخلفي، تشكو غياب القطار وتضع المساحيق لتمحو آثار العنوسة والأســئلة المطبوعـــة بالقائمـــة النافذة.



إفاقة

لم أكن بعيدًا.. عندما صرخت صافرة سيارة الإسعاف وأغلقت الأبواب في وجه القادم عبر الجسر الطبي..

أصوات تزمجر هنا، وأصوات تجهش بالبكاء هناك.. وصيحات محفوفة بصرامة للأوامر القاطعة.

أدخلوه غرفة الإنعاش المركز..

إنها حالة ميئوس منها!

ترتج الطرقات المحمّلة بدموع الأمهات الثكالى وأنين الأطفال لصدى التأوهات الزاعقة..

يجيء صوت من بعيد.. كيف ندخله غرفة الإنعاش؟

غرف الإنعاش كلها مكتظة بالمودّعين لهذه الحياة؟

لم يستوقفني هذا ولا ذاك، ولم يكن اسمي مسجلا في سجلات موتاهم..

بل الذي استوقفني هو وقوفي وحيدًا في مكاني أتعجب!

أتعجب من هذه الكلمة {إنعاش مركز} تعجب الرجل الهابط لأول مرة على سطح القمر!!

وجدتني أكرر المقطع { إن. عاش. مركز}.

يا الله!!

في لحة تحوّلت العبارة بداخلي لواقع آخر..

واقع اختلطت فيه الأصوات المزمجرة..

{هذا حرام.. من أين نأتي لكل هؤلاء بالمأوى والحياة الآمنة}.. وتوتر القابلة يوم ولادتي.

لم أستطع الربط بينهما.. وبين الأصوات المجهشة بالنواح في قريتي النائية.

وجدتني أتساءل؟؟

هل هذا نذير شوم يلف البوادي؟؟

أم أنها حالة مخاض متعثرة؟ يولد فيها شعاع جديد..

شعاع يسوق في ركابه قبسا من نور الإفاقة للجميع؟؟

لا أدرى؟

ربما!!

بل لماذا لاكها لساني على هذا النحو؟

يقول السطحيون المتنطعون على الشاشات الفضائية وفى المقاهي والكباريهات:

إن من اخترع هذا الاسم {إنعاش مركز} كان يائسا من غده وكان وقتها لا يؤمن بالغيب أو كان بين بين.

***

في هدأة الليل والسكون يقترب من عين الطفل الباكي.. صرخت صافرة أخرى -وارد جديد- دوي الصافرة يلاحق ما قبلها..

٢٧ ثانية بين الصافرة والصافرة.

انتظرت في مكاني مشدودًا.

رفعت عن عيني الغمامة الضاغطة على العرق الضخاخ وحلمت.

- عجبًا ما رأيت!!

في لحظة صمتت الأصوات المجهشة بالبكاء..

الأبواب كلها مفتوحة..

الحوائط من حولي في لحظة تبخّرت، وكأنها قطرة ماء وضعت في قــــدر فوق فوهة بركان.

وجدتني ومن كانوا بجواري وسط براح فسيح..

أعمدة الرياح تلعب هنا وهناك برايات لونها قادح من حمرة الشمس.

الرايات مشدودة فوق رؤوس حالمة.

الرايات لا لون ثابت لها!!

لا هي بيضاء حتى يقال إن أهلها أذعنوا للأوامر الصادرة من الشاشات الفاسدة أو استسلموا للواقع!

ولا هي سوداء حتى يقال إن أهلها يجاهدون في سبيل الله عن قناعة وفهم كامل!

تأكدت أني أصبت بفقدان للذاكرة، أو أنني مغشي عليه.

***

هزّني انطلاق صافرة جديدة.

فتحت فمي عن آخره.. وبحلقت في النجــوم الــسيارة.. سمعت من يترحم عليّ بصوت مكتوم.

سارعت بتحريك ساعدي الأيسر كي أقاوم الخبر الكاذب.. ودفع العاصفة العاتية القادمة نحوى.

- لم يقو ذراعي -

تذكّرت..

فذراعي مبتورة من زمن بعيد..

يوم أن مرق فيه القطار بالقرب من بلدتي النائية..

يوم أن فرضت (حكومة العسكر) على الشباب مثلي الوقوف على قدم واحدة في طوابير الملح والخبز الفاسد، وصفوف البطالة القاتلة.. من جرّاء الصافرات المتوالية، وعدم الإذعان للأوامر.

أجل تذكّرت..

ولأن العاصفة قادمة قادمة لا محالة.. لم أجزع من صوت الصراخ الساري.. ولا الزمجرة المملوءة بطعم النباح المر..

وأنا في مكاني أرقب ميلاد الفارس القادم من بين الولادات المتعثرة بغرف الإنعاش المكتظة بأنات الأمهات الحيارى.

زفرت زفرة لم أدرِ إن كانت صرخة..

أم رجع صدى..

عندها فقط، تأكّدت أني على قيد الحياة.

- أفقت من غيبوبتي -

استرقتُ السمعَ لكل صفارات الإنذار لسيارات الإســعاف العابرة والرابضة.

خبّأت ما تبقى من جلد ساعدي الأيمن، وفــروة رأس أبي ولهاة أمي.. بين طيات قلبي، وصمت.

أسدلت جفوني على سيل أحلامي وإفاقتي الناهمة.

لتمر العاصفة.

حتى يولد من يؤمن بأن الخالق لم يخلق الناس عبثًا..

وإن أخطأ الحكّام.. وأهملوا في بثهم المتواتر حسن التوزيع.. والقول الحسن.

***

أفراح



في منتصف الطريق، اكتشفت أنها تركت بـــاب حديقتـــها مقفلاً، وأن الوقت قد حان لوصول السادة المدعوين.. أكملت طريقها وابتاعت ما كان ينقص العروسة على عجل.. في طريق عودتها، كان الشمع الملفوف في ورق {السلوفان} يُطلّ مـــن نافذة السيارة، والابتسامة مرسومة على وجهها البشوش..

عندما توقّفت بسيارتها أمام الحديقة سمعت من يقول:

{إنا لله وإنا إليه راجعـــون}.. سكت صدرها بعنف..

مين؟ مين؟

مين اللي مات؟

قبل أن تصيبها إغماءة السكر جاءها الرد سريعًا..

رئيس الحكومة الله يرحمه..

ببطء شديد، سحبت (ولاعة) زوجها العزيز وأشعلت كل الشموع دفعة واحدة أمام زفة العروسين وانطلقت الزغاريد في كل اتجاه.



الزيارة الأخيرة



كانت تلقانا كل مساء بوجه بشوش.. ونحن نقـــف قريبًـــا منها -نهيم فيما نصنع- عربة اليد كانت تدفعها بصعوبة بالغة، عجلات العربة تقرقع عادة قبل غروب الشمس..

خيط المازوت المتساقط من صرخات {رولمان البلي} يحدد مجرى المسير والمنتهى..

نتتبع نحن {...} الآثار بغير عناء..

تنتهي خطانا للرصيف المقابل لوقفتها.

الألوان الزاهية وقراطيس الورق المقرطس فوق العربة تفـــتح شهية كل العابرين..

العربة محاطة بسياج من الورد ولفيف من{القُلل القناوي}..

(القُلل) منظرها يشف ويرف بأغطيتها النحاسية المـــصقولة ببريق {البراسو} الأغطية تبرق ولا أزرار عساكر الدوريـــة في العصر الملكي..

كل من نظر للعربة يتحرّق شوقًا لحبة من حبـــات اللـــوز المكدس على سطحها، ووجه (فتحية) يكسوه الاحمرار،كمـــا البنت في خدرها.

(فتحية) لم تزل في ريعان الشباب..

زوجها أقعده المرض.. ومعاشه لا يكفى سد حاجة البيـــت وطلبات الأولاد.

فقررت أن تصبح ممن يجيدوا فن مخاطبة النـــاس في وقـــار وإجلال..

ارتدت {جلبابها الطويل والمنديل أبو أُويـــــة والطرحـــة} ودفعت عربة الترمس بصعوبة..

تعلمت النداء بصوتها الرخيم في براءة وبلا تصنع أو ميل:

{اللوووز.. يا هدية الحبيب للحبيب يا لوووز.. تيـــيرمس يا لوووز}.

ونحن {....} نقف على الجانب الآخر..

نتلصص على عورات المارة ونطلق الضحكات والعبـــارات الماجنة...

نقذف بما لا نملك من أبصار زائغة هنا وهناك.

{قُلل} فتحية تتسمع لما نلوكه من افتـــراءات باطلـــة.. ونتنصت بخبث شديد.

بين الحين للحين، تلتفت (فتحية) تجاهنا وترمينا بابتـــسامة باهتة.. ثم تخرج (كوز الصفيح من البستلّة) ترش وجه الترمس ووجهنا فينقلب كلٌ منا للون الأصفر الباهت، ونحن لم ننته عن غـــيّنا.

كانت كلما طاف حولها شـــاب أو رجـــل، أو كلاهمـــا، رمقته بنظرة فاحصة..

فإما ابتسامة لا مثيل لها.. وإما غلالة من ليل غطيس لا قبل لأحد بها.

وكثيرًا ما كانت تتفتح قواميس اللغة حول عربة الترمس.. وتطول حوارات الشباب والشابات.

لم تمضِ أيام معدودات حتى يعـــود مـــن كانـــا بـــالأمس يتحاوران وأحدهما متأبطٌ ذراع الآخر، قرينًا وقرينة..

ونحن في غّينا عابسون.. والعربة يزداد مكانها اتساعا.

ترابيزات وكراسي ولمبات نيون تغطي خـــشونة الرصـــيف والأيام.

(فتحية) لم تزل قادرة على إطلاق الابتسامات وسد حاجات بيتها، ونح اللمسات الحانية على كل الأكتاف الجادة.

تعبت أقدامنا من الوقوف والتسكع.

....

في يوم جديد عزمت على قص الأثر وحدي..

اقتربت وادخرت من مصروفي اليومي.. حتى نهاية الأسبوع..

اشتقت لجرعة ماء نظيفة من قُلل (فتحية).

تتبعت الخيط الضارب في أعماق نفسي خيط مازوت (رولمان البلى) عربة الترمس.. بعيدًا عن رفقاء العبث.

ظللت سائرًا بخطوات تخالطها زفرات الندم على ما فات من عمر..

انتهى بي الأثر عند باب مستشفى {.....}.

تساءلت عن هذا الحشد الهائل من البشر؟

ما الخطب؟

ولم عربة (فتحية) عارية على قلوعها؟

جاءني الرد سريعًا..

واحسرتـــ ااااااااااه.

لقد فارقت الحياة!!

اليوم جنازتها!!

بكيت طويلاً وحدي بعيدًا عن رفقاء السوء.

ـــ لم أفق من بكائي إلا في عيادة أمراض نفسية.

وأنا في مكاني هذا، انطلقت في نوبة هستيرية من الـــضحك المتواصل..

أنا مريض؟

لا.. لا... عدوت ناحية الباب هربًا..

أدركني اصطفاف الممرضين والممرضات..

أعادوني لداخل العيادة..

في طريق عودتي قرأت (اليافطة) التي كانت علـــى بـــاب الشقة.

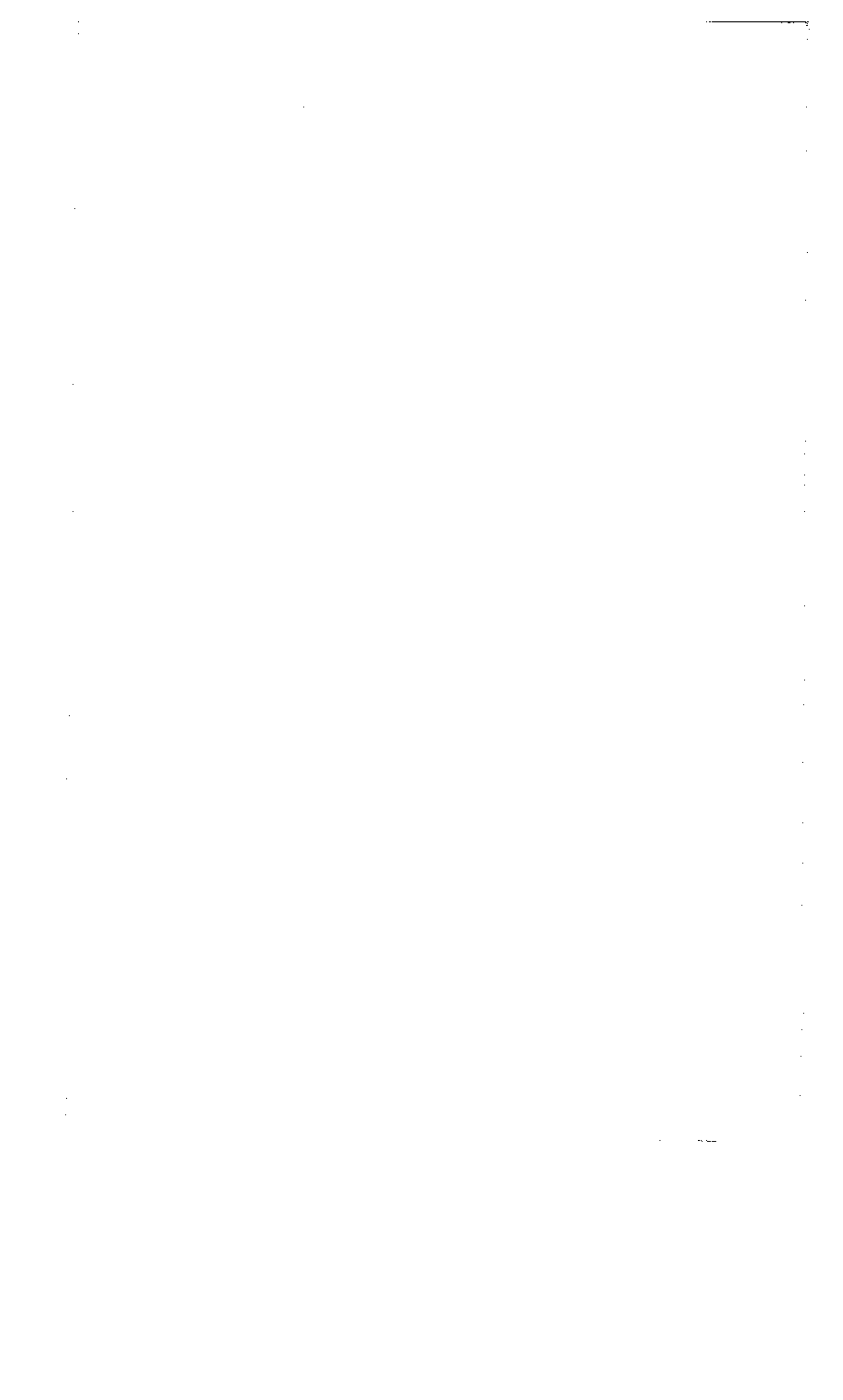
عيادة الدكتور / سعد أمين..

أنا أعرفه..

إنه ابن بائعة الترمس..

و لم أدهش عندما رأيت كل من كان يمرضني يرتدى بالطو أصفر بلون الترمس......؟؟

الضرب المبرح



ضجيج وجلبة هناك.. أمام الفرن البلدي.. أصوات الواقفين في الطابور تتعالى صيحاتهم.. إحدى النساء تصرخ { الحق يــا خويا.. النار ح تمسك فيه.. خلاص اتحرق }!!

على صوت الصرخة يخرج (مسعود) من خلف (مــاجور) العجين مسرعًا صوب مصدر الاستغاثة..

وجهه يغطيه (غبار) الدقيق والنخالــة.. وبقايــا العجــين الناشف.. وقطرات العرق تنزّ من صدره العاري.

بلهفة يتساءل: هــو فيه إيه؟؟

مين اللي اتحرق؟؟

تطــلق إحدى النساء ضحكة خليعة لمنظر الفران..

يستشيط (مسعود) من الضحكة..

مــــد بصره ناحية الطابور..

حاول معرفة صاحبتها حتى يوسعها ضربًا.. فهو كان مصارعا قديما..

تنقّل ببصره من امرأة لأخرى..

النساء في وقفتهن، أجسادهن متداخلة وملتصقة بعضها ببعض.. وكأنهن قطعة (عجين خامر) في كف (عجّان).. حركة أيديهن تعبث في الخفاء.. فتصيب طابور الرجال بالغثيان..

رائحة العرق الساري منهن تزكم الأنوف السليمة..

فجأة تتوقف نظرات (مسعود) في تنقلها.. تتسمر عيناه على المرأة الواقفة في أول الطابور..

يصفق على يديه بضربة قوية.. فتطير ذرات الدقيق والنخالة من فوق أسماله البالية.. تعبق المكان بسحابة بيضاء..

ينطق.. يا الله!!

إنها تشبهها؟!

دقق النظر ثانية.. مسح عينيه بكلتا يديه.. اقترب أكثر.. إنها هي.. هي.. فهو لا يخطأ هذا القوام ولا تلك الشفايف القانية.. ولا حلاوة مذاقها.

تقدم صوبها أكثر فأكثر.. بصوت خفـــيض ألقـــى عليهـــا التحية.. لم ترفع عينيها عنه.. تفرّست فيه بكل تفـــصيلة.. ثم غابت في أحلامها ولياليها الماضية..

(زامت) النساء الواقفات في الطابور..

صاحت واحدة منهن.. {الحق يا خويا.. التانى ح يتحرق.. النار ح تمسك فـــــــيه}؟

أطفيء النار يا فران!

بخبث تنطلق قهقهة صاخبة بطابور الرجال، ويهتف مراهق من بينهم..

خلصونا بقى!!

قبل أن يستدير (مسعود) ويتجه للداخل.. أغلـــق محـــبس الوقود قليلا لتهـــدأ النيران.

بعدها همس في أذن (آمال) بكلمات خافتة.

و(آمال) تكمل رحلة نظراتها المتفرسة وتطوقه بابتـــسامتها المعهودة.

أشاحت بيدها في الهواء حتى لا تفهم النسوة ماذا تعـــنى!! انهمك (مسعود) فيما بين يديه وراح يلكم العجـــين لكمـــات شديدة متلاحقة، و(يلتّه) كأنه في حلقة مصارعة..

بينما كان عقله سارحا هناك.. في طيف الليالي الخالية والملاية اللف.. والباب المُقفل.

الباب لم يكون مقفلا.

- تذكر السنوات التي مضت على آخر لقاء جمعهما..

كانت (آمال) وقتها في السابعة عشرة.. وكان هو في الحادية والعشرين..

كان لم يزل عضوًا بمركز شباب الحي.. يتباهى بعضلاته المفتولة التي كانت تعجب المراهقات.

في عز انهماكه وسرحانه داهمته الأسئلة:

ماذا صنعت الأعوام الخمسة بها؟؟

أين اختفت طيلة هذه السنوات؟؟

هل مازالت تذكر الساعات الماضية؟؟

هل تحتفظ بعهدها القديم وحبها لأغنيات أم كلثوم؟؟

يا ترى تزوجت؟ ومن يكون زوجها؟؟

أتعبته الأسئلة حيثُ لا إجابة.

خرج من شروده على زجمرة النسوة وصياح الشباب المتململ من طول الانتظار.

عاد (يقرص) العجين همة ويرحه ويفرده على الطاولة و(يرميه) داخل الفرن.

يرقب بشغف نقص أعداد الواقفين في الطابور ومرور الوقت حتى يجيء موعد اللقاء.

لكن الساعات تمر متباطئة، وهو في شوق لسماع طرقعات كعب حذاء (آمال) فوق درجات السلم..

إنه يذكر الطرقعات التي كانت ترنّ في الماضي..

وقتها كان (مسعود) يتخفى ويتسلل من وراء كل البيوت ويصعد فوق السطح..

ينتظر حضور (آمال) ليتبادلا طقوس العشق والهيام..

اليوم وبعد لحظات قليلة.. لن يكون في حاجة للتخفي والصعود للسطح..

سوف يلقاها ويستقبلها في شقته.. ويفضي لها بكل ما ادخره من أشواق..

لن يكتفي هذه المرة بالقبلات والأحضان والكلمات المعسولة.. سوف يرويها من عصارة زنده ويطفئ النيران المتأججة في عروقه.

انفضت طوابير الخبز وغربت شمس اليوم، ومـــرت ساعات بعدها..

خيم الظلام على بيوت الحي.. و لم تصل مسامعه طرقعـــة واحدة..

لم يشتم رائحة الطيب التي كانت تتعطـــر بـــه ويـــسبقها بمسافات طويلة..

تسلل القلق إلى قلبه..

بدأ العرق يهجم عليه..

خفف من ملابسه الضيقة.. (شيّش) شيش الـــشباك حـــتى يمكنه مشاهدة المارين من حيثُ لا يرونه..

تحول القلق إلى سيل من الأسئلة:-

ربما لم تستطع مغافلة أهلها كما كانت تفعل من قبل؟؟

ربما نضب جراب الحـــيل عندها؟؟

أو ربما تكون ضلت الطريق وتاهت عن مكان البيت؟؟

ربما؟؟

فالحارات كلها متشابهة في هذه المنطقة!

لا.. لا هذا ولا ذاك.

عليّ أن أنتظر لبعض الوقت (آمال) لم تخلف موعـــدًا مـــن قبل.. وتخاف لكماتي الصارعة.

قرب أول شعاع للنهار الجديد أن ينبلج و(مسعود) مـــازال متحفزًا في مكانه يرتقب قدومها..

صاحت (الديكة) وعلت قرقعات عجلات عربات الفـــول على بلاط الحارة..

عاد من غفوته.. تلفت فيما حوله، وكأنـــه يـــصحو لأول مرة.. لم يصدق أنها لم تحضر في الميعاد!!

كذّب نفسه وقال:-

ربما لم تسمع همسي بالأمس؟؟

فالضجيج كان لا يحتمل!؟

واستمر(مسعود) يطرح الأسئلة ويجيب عليها:

إن لم تكن تسمع همسي؟!

فلمن كانت الإيماءة؟

ولمن كانت الابتسامة؟؟

إنها نفس الإشارات التي كنا نتفق عليها كلما عنّ لنا اللقاء فيما مضى!!

قبل أن تعييه الأسئلة، غادر شقته قبل الموعد الـــذي كـــان محافظًا عليه طيلة خمس سنوات..

ما إن وصل للفرن حتى خلع ملابسه الأنيقة وراح يرتقـــب اصطفاف طابور النساء أمام الفرن..

عازمًا أن يوسعها ضربًا مبرحًا عندما يراها.

راح ينخل الدقيق ويملأ{العجان} بالماء الفـــاتر، ويـــذيب الخميرة بالماء الساخن..

وهو بين لحظة وأخرى يمد بصره للخارج..

يتفقّد طابور النساء..

لم تأتي؟

قارب النهار على الانتصاف وطابور النساء يطول ويقصر، ولم يسمع صرخة واحدة..

غير أن النيران كادت تأكل بصره.

لم تبق غير سويعات قليلة ويغلق الفرن أبوابه، و(آمـــال) لم تحضر!!

ماذا أصنع إن لم تحضر؟

أأكون فقدت بريقي عند النساء؟؟

أم تكون لكماني فقدت عنفوانها؟؟

في ذات اللحظة التي كان ينتظر الإجابة وصلت مسامعه صرخة متحشرجة في حلق امرأة..

{الحق يا خويا.. الحقه خلاص ح يتحرق.. النار ح تمسك فيه!}..

انتفض (مسعود) من مكانه وهب مسرعًا ناحية الصوت.. هي فين؟

هي فين؟

والمرأة إياها تتمادى في ضحكاتها الصاخبة..

{أنا أهو يا خويا.. ما أعجبش، ولا ما أشبهش؟}.

يقذفها (مسعود) بنظراته الحارقة..

والمرأة في مكانها لا تتزحزح من مكانها..

لا تخشى نزال (مسعود).

و(مسعود) تصرخ بداخله زفرات الأسى على من لم تفي بوعدها بالأمس واليوم..

من ضيقه، شرع يذيق المرأة المولولة مذاق ضرباته المبرحة..

والمرأة في مكانها لا تتحرك ولا تهابه..

كشفت عن بياض صدرها.. وانتظرت اللكمة الأولى..

قبل أن يهوي بقبضة ذراعه على المرأة..

سمع من تقول: -

(آمال) أهي.. هناك.. تسير في أول الحارة..

تسير متعلقة بذراع (الأستاذ راضى) المحامى زوجها..

خفض (مسعود) جناحه، وراح يلكم المرأة لكمات متعاقبة وهو يلعن المصارعة التي أفقدته حلاوة الحب، وتكملة طريـــق الدراسة المتوسطة أو العالية وجعلته مجرد فرّان تعجب به النساء في أحلامهم.


الهاتف



لم يكن يعلم بما يحدث في الخارج.. فأحداث الحارة بعيـــدة عن بؤرة أفكاره..

عادةً ما كان يقضى أيامه متكورًا في سريره.. الـــسرير ذي الأعمدة النحاسية العتيق.. منفصلا عن الدنيا وما فيها.. سابحًا في ذكريات أيام قلائل لا يغادرها أبدًا.. غير طامع في أكثر مما يقيم أوده..مطلقًا للعنان فيض أحلامه بلا تحفظ.. مسترسلا في مناجاته لمحبوبته ومعشوقته من أيام الصبا سرًا.

فجأة وعلى غير العادة (يدق جرس الباب دقات متتابعة)..

هب من تكوره واقفًا.. يصيح بصوت عال:ـــ مين؟

مين ع الباب؟

تذكر أنه لم يتحدث منذ عام

ـــ خفض من صوته ـــ

وواصل... أنا جاى أهووو!

يزلج المزلاج ببطء.. ينفتح الباب..

يجد أمامه (سعاد) تتلعثم الحروف فوق شفاهه لفترة قبل أن ينطق:

{أهلا وسهلا.. اتفضلى}.

ما إن مدت يدها لتصافحه طال عناقه لها.

حاولت الفكاك من بين أحضانه وتجميع شتات أشلائها المتناثرة وأن تهدأ من روع أنفاسها المتلاحقة.

ـــ أبدًا ـــ

عاد.. وربت كتفيها وأجلسها على مقعد قريب من فؤاده.

ـــ يتهدج صوته ـــ

خيرًا ماذا حدث؟؟

تجاهد (سعاد) خجلها وتحاول رفع رأسها على استحياء.. عازمة على البوح الكامل..

تتحشرج الكلمات بصدرها وتتسمر نظراتها بالبرواز المثبت على الجدار المقابل لجلستها.

ـــ ترنو إليه طويلا.. يضطرب خفقان قلبـــها وتتـــسارع نوبات الشهيق والزفير.

ـــ يتفصد جبينها عرقًا ـــ

تموج التأوهات بين شفتيها ويطبق السكون على المكان..

يطلق (رشاد) ابتسامة ملء السموات والأرض تزلـــزل مـــا بداخلها من جديد.

ـــ تنتصب واقفة ـــ

تعاجله بنظرة حارقة.

ـــ يتلقاها بقبول حسن ـــ

تعود لتزمجر وتزوم: ـــ

من صاحبة هذه الصورة؟؟

يرد عليها بحروف متأنية:ـــــ

(دي يا ستي.. دي.. تبقى صووورة)؟؟

في هذه الأثناء تنهمر دموعها حارة..

يعاجلها بكلمات هادئة..

يحاول تغيير مجرى الحديث.

ـــ تقاطعه والدموع لم تزل تنهمر من عيونها..

غير أن الدموع لم تبلل منديلها الورقي المطوي بين راحتيها.

ـــ تطفو فوق شفاه (رشاد) بسمة حالمة.. تحتويها (سعاد) بلطف فريد.. {يزغرد قلبها من الداخل لاهتمامه الزائد بوجودها}.

تكمل زمجرها وزومها وتواصل حديثها:

{ما هو لو كان عندك تليفون.. كنت طلبتك وقلت لك إن سَنوية المرحوم جوزى كانت إمبارح).

في تحفظ شديد يملأ (رشاد) الفضاء من حوله بفرحة عارمة.. غير مصدق!!

ببطء شديد يناولها نظارته الطبية..

تقف (سعاد) تدقق في الصورة المثبتة على الجدار – كأنها أنا –

ينطلقان سويًا بالضحك الصاخب..

فجأة يرن صوت الهاتف الميت من سنوات خمس.. يعلو صوت ضحكاتهما من جديد..

أخيرًا عادت الحرارة لقلبينا.

الورطة



كان الرّدم عاليا، والطريق لم يزل في أوله، والرحلة طويلة وممتدة لعشرات السنين لليوم.. عندما وقفت حركة سير المركبات على الطريق من حولهم..

بعد فترة نزل السائق من الحافلة يستطلع الأمر..

بينما كان (العوضى) يضع سماعة {الهيدفون} فوق أذنيه حتى لا يدخل في حوار عقيم مع زملاء الرحلة..

لم يشغل باله بأسئلة عقيمة دائرة بينهم..

ماذا لو؟..

من أين؟....

ربما؟

طالت وقفة المركبات بلا حراك كأن أصابها الشلل المفاجئ..

رفع (العوضى) السماعة من فوق أذنيه فجأة..

سمع العويل والصياح يجيء من الخارج..

أزاح ستارة نافذة شباك السيارة عن عينيه..

كان الانهيار فظيعًا..

دفع الجالس بجانبه وهمّا بالهبوط..

نهره من كان يجلس بالمقعد الأمامي..

إلى أين؟

كيف تهبط من حافلة مكيفة وتتنزل إلى هذا المستوى الوضيع.

- لم يبال..

دفع باب السارة المكيفة خلفه واندفع ناحية الرّدم..

ثارت ثورة الزملاء..

قال أحدهم:

إن هذا (العوضى) لابد وأن له جذورا اشتراكية..

ما لنا وهؤلاء الرعاع؟

أقسم بأنه يريد إحراجنا مع العامة!

رد آخر بعنف.:

ما كان لنا أن نصحبه معنا في هذه الرحلة.

{يا أسطى (حسنين) شوف لك طريقة وخلصنا من هـــذه الورطة}.

تبسّم من كان يجلس بالمقعد الأمامي..

لا هذا ولا ذاك؟

بل اعرض علينا هذا الشريط (الفيديو) حتى يقتل الوقت..

مالنا نحن بما يدور هناك بالخارج؟!

أما يكفينا أننا نجاور هؤلاء التعساء.

و((هناك.....)). يتسلق (العوضى) تل الركام..

يرفع الأنقاض مع الرافعين حتى ينفـــرج الطريـــق وتعـــبر المركبات المتعطلة..

فجأة غاصت قدم (العوضى) في هوة ضيقة..

لمست قدمه شيئا طريا..

تحقق منه.. سمع صوت زفير متحشرج في حلق إنسان.

.. دقّق النظر..

كانت سبابة الراقد تحت الركام تصدر إشارات مفادها أنـــا هنا تعال وأنقذني..

صرخ (العوضى) صرخة لم يصرخ مثلها من قبل..

خلع قميصه ورابطة عنقه القيمة..

لفهما على ساعده الأيسر.. ثم أشار لمن أمامه..

أن ارفع (العِرق) الخشبي الذي أمامك.

وضع (العوضي) ساعده مخدة للعِرق، وباليـــد الأخـــرى {أدخل عِرقا آخر بالعرض}..

في مستوى ركبتيه بدأ (النقب).. تقصفت أظافره من كثرة عبارات النقد اللاذعة على طراوة تكوينه البدني..

بحث بين طيات ملابسه عن شيء يعينه على الحفر..

لم يجد سوى قلمه {الأبنوس} الذي اشـــتراه في رحلتــه الأخيرة من ميدان (بيكاديللى) بلندن..

راح (ينبش) بطريقة أسرع.. فالموضوع هنا يتعلـــق بحيـــاة إنسان ينتظر عمله، وهذا اختبار صعب لم يمر به من قبل.

تجلّد (العوضي) وهو يُطمئن من كان تحت الركام..

بعد مدة ليست بالقصيرة لمعت عينا (العوضي) وتغرغرتـــا بالدموع.

فلقد كان من تحت الركام لم يزل يشير بسبابته ويهمس..

هذه المرة كانت الإشارة والهمس تعنيني..

- لا تخف أيها الباحث عن دور جديد لك في هذه الحياة..

لا تخف..

أنا فداك أيها المنقب الصامد..

يكفيك فخرًا شرف المحاولة.. سوف ننحو سويًا.

وتتاح لنا الفرصة والوقت كي نجيب على كل الأسئلة.

ماذا لو أتقن كلٌ منا عمله؟

من أين جاء الجهلاء بهذا المنحى الغريب؟

ربما يأتي علينا يوم قريب.. يرحل عن أراضينا كلها أصحاب القلوب الراجفة والأيادي المرتعشة، ونلحق بركب الحضارة التي سلبوها منا ذات يوم.

بريق.. خافت

في منتصف ليلة غاب عنها ضوء القمر.. سمعت صدى الصوت وقت هدوء الريح..

وأنا موقوف بين جدارين بلا غطاء.. تهزني أيادٍ لا أعرفها، ولكن أكاد أشم فيها ريحا طيبة..

الأيادي عظمها غائر في كوة سحيقة مكتوب على صفحتها الممسوحة لجنة (حقوق الإنسان)..

- ضحكت حتى الثمالة -

فاض لساني:

أما تزالون تعتقدون أن لي حقوقا؟

وأني إنسان؟؟

ربتت كتفي إحدى الأذرع المخترقة لبطن الحائط الذي أتخفّى خلفه..

أنت؟

(كان يقصدني)..

لانت عظام رأسي الملقى بعيدًا عن لطراوة لمسته..

خشيت أن تخرج من بين شفتي رائحة العفن الطافق فتجرح خيوط (بدلته) الأنيقة..

آثرت الصمت وحدي حتى لا تتورم أحداق أبي خلف الأبواب المغلقة في الديار الضارب فيها السوس حتى النخاع هناك..

كتمت أنفاسي بكف يدي المثقوب، وظللت وحدي ما بين ارتقاء وهبوط لسلالم إخفاقاتي وأوهامي الشريدة.

فجأة.......

ناداني نفر آخر لا أعرف نسبه.

نطق باسمي مجردًا.. تعجّبت!!

هذا الصوت أظن أني قد سمعته قديمًا..

حبوت ناحيته.. كلما اقتربت منه، سمعت من يقول:

لا تطاوعه واحذر!

سألته والصوت يشق بدني.. هل تعرفني؟؟

تنكّر لمعرفتي!

من بعدها رأيت في عينيه بقايا نظرة حانية..

النظرة تكاد ترثى حالي..

أومأت لباقي زملائه بسبابتي المقطوعة حتى لا ينكشف أمري.. أنا لا أعرفه!

إنه هناك... ارحموني...

هناك في الجانب المظلم من هذه الدنيا ثدي أمي عار يكاد يحتضر من كثرة النزيف.. معروض في مزاد علني للسادة..

أما أنا.............

أقسم لكم جميعًا.. سواء عرفتموني أو كنتم تجهلوني.. أقسم أني لن أعود لمثلها ثانية.

سوف ألزم مكاني..

لم يعيّروا قسمي اهتماما.

عندها كان بالقرب من كل عطفة وحارة بأرض بلادي..

عواء لذئب ونواح للغراب ونظرة مريبة لمن يرفع رأسه قدر شبر من الأرض البوار.

وكانت الحدادي ترتقب احتضار الأمهات الثكلى أو تئن.

وفرق الصليب الأحمر تنتشر بكل بقعة هنا وهناك..

تنتظر أن تلملم جثث الضحايا وهي تهمس في بطن الحجر وقلب البراري نشيد الولاء..

- {علشان ما تعلى وتعلى وتعلى.. لازم تطاطى.. تطاطى تطاطى}.

لزمت مكاني.. فالغبار المتطاير من نيرانهم يأكل رئتي هنا، ويجز رأس أبي هناك..

ها هو أحدهم يقذف بي وسط أرض الساحة مخضب الدماء ويبتسم ..

لأنني أقسمت لهم في العراء.

- لا تأخذوني.........

فأنا أهذى بكلمات كنت سمعتها يومًا من شعب قد مات من سنين: -

(ثوار يا عرب ثوار).

***

على بعد خطوات من خطواتي المقطوعة..

يتعانق هناك بصيص نواح أهل قريتي مع قسمي..

يهرول ابن أمي الصغير ناحية الجمع..

ملابسه بها بقعة من زيت، ويحمل قطعة نقود مزيفة لدولة من دول النفط..

جره العسس مثلما جروني سابقًا.

أخي كان أذكى مني.. عرّض قطعة النقود لقرص الشمس.. لمعت عيون العسس وسال لعاب العقارب والذئاب من حرس الوزراء..

تركوه يلس قطعة القماش البالي في فمي النازف.. ويعود.

عاد ليقبض حفنة من تراب الأرض.. ذرها ناحية كل العيون البصاصة على قارعة الطريق..

تثاقلت كل العيون وسط أعمدة الدخان المتصاعد من عروق الشعب المحترقة أعصابه.

فجأة يقذفني ساعد أسمر لا أعرفه.

يقذفني لبطن أمي.

أرتدّ جنينًا.

أتعلم من البدء الأسماء ومنازل الجلوس ومقاومة البكاء ونطق حروف الكلام الصحيح.

لم أحص عدد الشهور التي حملتني فيها أمي للمرة الثانية..

غير أن يوم ولادتي الجديدة بصرت فأس أبي تضرب وجـــه الأرض.

فتنهمر قطرات العرق سيولا.. تهبط لأعلى..

القطرات تجرف كل الأخطاء السابقة قبـــل أن تـــصل إلى المصب..

تحتضنها السواقي الساهرة على شطوط الأمل.

بينما لصوص الحرس والعسس يغيرون مـــسارهم في عـــز انتصاف النهار.

***

تحت بقعة ظل هاربة من القيظ استظلت عيون أمي برهة من الزمن.

تجرّعت معها بقعة الضوء وشربنا عـــصير جريـــد النخـــل المسلوق.

شربناه سعفة.. سعفة..

في حين كان أبي يغزل في منفاه الاختيارى حبال الصبر من (ليف) النخل الشاكي، ويشدها على البطون الجائعـــة..

بقعة الضوء الخافتة تمددت في حجر أمي..

وصلت إلى (بحراية الدار) عانقت حلـــم الوليـــد في ســـنا القمر..

تأججت معها نيران الفرن الخامد منذ زمن الأتراك..

بقعة الضوء تحوّرت..

صارت قبسا من نور..

تلقاه ثدي أمي وكل نهود البنات قبل سكرة الاحتضار..

هدهدوه حينًا.. وحينًا سقوه مزقات من لبن (السرسوب)..

قبس النور نفذ لكف أبي وعظام رأسي.. خبأنه بحواشـــي القلب..

وعزلناه عن عواء الذئاب الضالة والحدادي والغربان.

في لمحة من بصر ينتصر الحق وتلتقي الأرض بالسماء.

جواد على الحائط



كان يركض في المضمار كركض الهارب من نيران مستعرة تكاد تلحق به.. كثير من العيون الجالسة بالمدرجات كانت مسلطة على قوامه الممشوق وقوة فرائصه..

وهي تتعجب!

تتعجب من حجم الفتى الذي يمتطي صهوته!!

القليل منهم راهن على فوزه بالسباق، والأغلبية الصامتة كالعادة عازفة عن المشاركة، تكتفي بالمشاهدة من بعيد..

شخص واحد من الملايين الناظرة للفتى والجواد.. كان يتوق لفوزه بهذا السباق في التو واللحظة..

بدأ العدو.. وأنا مربوط بالسرج الذهبي للجواد الراكض في أرض المضمار.. إحدى يدي مغروس فيها سوط غليظ، والأخرى مكبلة بطرف اللجام، وعلى رأسي خوذة مملوءة

بأحلام أبي وأمنيات أمي..

وأنا لا أستطيع كبح جماح نفسي ولا أتمكن من جعل الجواد يسرع من ركضه عند السدود والحواجز التي تواجهني، عندها تذكرت.. تذكرت هذا اليوم بالتحديد.. اليوم الذي مرّ على ذكراه عشرة أعوام كاملة..

هذا اليوم كان أول يوم أسوس فيه فرسا..

عندما قالت أمي وهي تداعبني:-

انظر على هذا البرواز المثبت على الحائط.. هذه صورة والدك وهو يمتطي ظهر جواده (سهم).. هذا الجواد هو جد جوادك (أدهم) وهي سلالة عربية خالصة.

هذه الصورة التقطت يوم ما، كنت داخل غرفة العمليات بمستشفى {...........} أشكو آلام الوضع فيك، و..... و...

وأنا لم أنس ساعتها مقدار الحنق الذي أصابني من كثرة الحديث عن الجواد ونسبه وسلالته و... و....

وخلوه من ذكر البطولة التي حققها والدي في نفس اليوم، وحصوله على المركز الخامس على المستوى العالمي والأول على مستوى الجمهورية في مسابقة كأس العالم لقفز السدود والحواجز.

هذه الأحاديث التي تحولت الآن إلى ثرثرة بغيضة، وصنعت من أمي شخصية مخالفة ومغايرة لما كانت تتحلى به في حيـــاة أبي..

حتى أصبح لها أهداف أخرى غير الرياضة نفسها..

الرياضة التي تسمو بصاحبها لمراتب أخلاقية عالية وتعود

عليه بالنفع واعتدال التفكير والقدرة على اتخـــاذ القـــرار المناسب في الوقت المناسب، ومواجهة أعباء الحياة بعقل سليم.

هذا ما تعلمته عن الرياضة أو على الأقل ما فهمته من كـــل المدربين الذين قاموا بتدريبي وعلى رأسهم المرحـــوم أبي.هـــذه الثرثرة التي أصابت أمي وكثير من أبناء بلـــدي.. وصـــارت الأغلبية صامتة عن المشاركة الفاعلة في أمور تتعلـــق بـــصميم احتياجاتهم العامة، ومع هذا تثرثر بما لا تستطيع عمله وتزيـــد عليه، وتنتقد كل شيء وأي شيء في آن واحد دون دراية.

لم يبق غير السد الثلاثي أمام جوادي.. وأمي تُمنى الـــنفس أن يلتقط المصور الذي أحضرته خصيصًا هذا (الكادر) وأنـــا أجتاز هذا السد.

حتى تبروزه في برواز ذهبي وتضعه بجوار الـــبرواز الفـــضي لصورة أبي وسط البهو الكبير لمنزلنا العامر، لـــتجلس وتقـــص القصص والروايات على كل من يحضر.. الثرثرة التي لا تنتهي.

فجأة تتعثر سيقان الفرس (أدهم) في عوارض السد الثلاثـــي ويختل توازنه فيكبو على عنقه الطويل السرح ويلتوي هيكلـــه للجانب المعاكس ويقذف بي بعيدًا عن جسم السد وعوارضه.. والجمهور المتابع في المدرجات يهب واقفًا على قدميه.. يكـــاد قلب الرياضيين منهم ينخلع من مكانه، والغالبية المثرثرة ترصد الموقف حتى تحسن الثرثرة على صفحات الجرائد السيّارة.

....

لم تمض لحظات وكان الجواد (أدهم) يلفظ أنفاسه الأخيرة وعربة الإسعاف تنقلني إلى أقرب مستشفى ليجـــرى الأطبـــاء عملية دقيقة في العمود الفقري، ويضيع على أمي (كادر) نادر للجواد (أدهم) ابن السلالة العربية "المأصّلة" والجوكي الـــذي كانت تتمنى أن تصنع له بروازا ذهبيا وتضعه علـــى الحـــائط ليكون مادة سخية للثرثرة طويلة الأمد.

حط الحمام

مازلت أذكر اليوم، وأذكرها..

كنا أطفالا نلتف حول حلستها بعد صلاة العشاء لساعات طويلة..

إخوة وأبناء عمومة..

كانت تنيخ أحدنا راكسًا علـــى ركبتيـــه مـــستندًا علـــى ساعديه..

ثم تضرب براحتيها على ظهر الجاثي ونحن معهـــا وهـــى تردد: -

{شيلوا حمام.. حطوا حمام.. على بير زمزم حود وهـــات}
ثم تخيره.. وهى تحرك سبابتها فوق ظهر(البارك) في حلقـــات دائرية.

تختار (المقص.. ولا السكاكين.. ولا الزغازيز).

تخرج الضحكات من قلوبنا صافية صفاء تلك الأيام..

والأمس أذكره وأذكرها أيضًا.. بالرغم من أنني شـــارفت على الستين من عمري.. ولكنى أذكرها وهى تتطلـــع إلى مـــا أصنعه بأحفادها.

وما يصنعه الزمان بفروة رأسي وانتحال شـــعري وشـــيبته وهى لم تزل تردد على مسامعي نفس الكلمات نفسها دون أن ينيخ أحد على ركبتيه.

لقد مضى على تكرار ما أذكره الآن أكثر من نصف قـــرن من الزمان وهى تزيد عليه:-

يا ولدى إن كنت حقًا تذكر.. فتذكر..

(تذكر الديّن الذي في رقبتك لي.. إنها دعوتي وبـــشارتي.. احرص على أدائها في موعدها ووقتها).

أنا لا أفهم ماذا تقصد وتزداد حيرتي.. فتضحك هي علـــى حالي ولا تفصح.

***

اليوم وأنا بين يديها واقف أسلم عليها وأنا في طريقي لأداء الركن الخامس.

وبينما أنا في انحناءتي لتقبيل يدها.. ضربت على ظهـــري بكلتا يديها ضربة حانية..

عندها انكشف الغطاء عن عقلي البليد..

قفزت في الهواء وصرخت.. لقد فهمت.. نعم لقد فهمت الآن..

جثوت لأقبل الأرض من تحت قدميها.. قاومت هي ودموعها كشلال دافق..

قبضت على لحيتي البيضاء وقالت: -

لا تنس ما كنت أوصيك به؟!

ومددت جسدها النحيل وراحت في نوم عميق..

رحلت لطريقي وقلبي يزغرد.. وحمدت الله أنني في الأعوام السابقة استطعت أن أجعلها تؤدى الفريضة عنها وعن المرحوم والدي.

حط بي الرحال في الأرض المقدسة وأديت المناسك كلها لأول مرة وكانت سعادتي طاغية لا تقدر بشيء.

في طريق عودتي تذكر {شيلوا حمام........}.

ملئت {قربة} من ماء زمزم، واحتفظت ببعض {الجمرات} الزائدة عن النسك وحشوت الجراب بكل ما كانت تتمنى.

تمنيت خطواتي تسبق سرعة إبحـــار الـــسفينة؛ كـــي أرى الابتسامة تملأ وجهها البشوش وهى تشرب جرعة من ماء زمزم حسب الوصية التي مضى عليها أكثر من خمسين عامًا..

عند مشارف قريتي، كان الحمام يحوم فوق دارنا.. يضرب بأجنحته الفضاء بشدة بطريقة غير معهودة منه من قبل..

يحط ويطير في نفس اللحظة..

انخلع فؤادي من بين جنبي..

لابد وأن في الأمر شيئًا؟

على فم الحارة كان الصبية الصغار يرددون وعيونهم تزرف الدموع

{شيلوا حمام.. حطوا حمام.. على بير زمزم حمل وحاب}.

وكانت أمي ترقد هناك مطمئنة.

والجمرات ترصع قبرها.

وماء زمزم يروى الصبار النابت فيه.

حلاوة روح

قالت وهي تصفف شعر حفيدتها الصغيرة:

(هيه) كانت أيام!!

لم أكترث لقولها..

مدت يدها المرتعشة على {ألبوم} كان بجانبها..

تخيرت منه تصفيفة كانت تروق لها قديمًا..

انهمر الدمع من عينيها غزيرا..

تركتها وشأنها لبرهة..

بحثت عن كلمات بصدري تواسيها..

لم تقو ذاكرتي..

عندها هفوت لضربها ضربة تعيدها سيرتها الأولى.. سمعت من يقول:

(دى حلاوة روح) تصاحب كل من كان في النزع الأخير.




دولت



كان (يقـــعص) الطربوش على قورته ويمشي الهوينى.. بينما الأيام وحالة البؤس تنضح منه.

(تخر) من أذنيه..

- لا ينتصح - كان متعاليا.

رآها ذات يوم داخل حنطورها الفضي تتريض، ويجـــــرى في ركابها لفيف من الخدم..

علق بصره في السماء وقال:

{هي دى وبس}..

عاد إلى بيت أمه وأبيه منتشيًا..

أطال الحديث معهما.. لم يسمعه أحد..

في اليوم التالي كانت صورته تتصدر كل الجرائد.

وفى أسفلها..............

{قاتل أمه وأبيه من أجل عيون بنت السلحدار باشا}.



رقـــم.. نحاسي



عرفته من زمن بعيد.. كان حمالا.. كواهله النحيلة تيبس عظمها من كثرة ما حمل..

دورانه كان ثابتا بمنطقة محددة المعالم.. اتجاهاتها أربعة.. لا يجرؤ أن يزاحمه فيها أحد..

على مدار سنين كان حريصًا في كل صباح ومساء أن يلقي عليّ التحية.

لم نجلس سويًا ونتجاذب أطراف الحديث أو نشكو لبعضنا بعضا مُر الحياة أو نحكي عن ساعات سعدها ومُرّها..

انقطعت بنا السبل.. تباعدنا.. كان هذا من زمن، ولا أدرى الأسباب التي جعلتنا نفترق..

غابت عنا وشائج التحيات العابرة وغاب طنينها عن أذنينا فنسينا ما كان.

في ذات مساء بعد انقضاء أعوام كثيرة.. ساقتني أقدامي على غير موعد للميدان الواسع الفسيح..

لا أعرف السبب الحقيقي الذي دفعني لهذا؟

ربما تكون العادة؟!!

أو حب الرجوع لاجترار الذكريات الماضية؟

في المكان والرصيف الثابت لوقفتنا التي كانت.. تلاقت عيوننا مصادفة.

عرفته، وعرفني.. فكلانا لا يخطئ الوشم المطبوع على الأكتاف الغائر تحت ثنايا الجلد..

تصافحنا للمرة الأولى..

رمقني، ورمقته بعيون فاحصة..

هالتني سرعة سريان الشعر الأبيض المتناثر بفروة رأسه، وانقباض الميدان الفسيح من حولنا..

فالمارة خطاهم تسارعت بلا هدف محدد لا أعرفه.. كما أنهم صاروا بلا أمتعة.

من المؤكد أن صناع (السلال والقفف) القديمة غيروا مسارهم.. اتخذوا صناعات أخرى يقال عنها في وقتنا الحاضر صناعات متطورة..

في نَفَس واحــــد وجدنا أنفــسنا ننطــق معًــا ونلعــن الاختراعات الحديثـــة، وزمـــن العولـــة حيـــثُ البوتيكـــات وساندويتشات التيك أواي..

كما صببنا جام غضبنا على من اخترع العجلات للشنط.

لم تطل وقفتنا هناك..

قبل أن تتشابك أيدينا بسلام الوداع.. سمعنا فرملة ســيارة تصرخ بجوار الرصيف المقابل لوقفتــنا..

السيارة {نصف نقل} فوق ظهرها {كرتونتان}.. الواحدة منهما تطاول شواشي الشجر ارتفاعا..

رماني زميلي بنظرة اســتعطاف راجيــة.. رددتهــا عليــه متسامحًا..

هي لك..

بشت أساريره، وهم مهرولا قاصدًا إياها..

حتى لا يسبقه إليها حمّال غيره..

ما إن نزل لنهر الشارع.. حتى صدمته ســيارة تــسير في الاتجاه المعاكس.. السيارة لوحاتها المعدنية تحمل أرقاما قليلــة.. لون اللوحة أزرق غامق بلون سماء المدينة في تلك الليلــة.. لم

يصرخ المارة والواقفون على رؤوس الأشهاد كما يحـــدث في مثل هذه الحوادث.

ليس لأن المصدوم يرتدى بزة صفراء على صدرها قطعة من نحاس أصفر مدوّن عليها رقم مكوّن من عددين (١٢) من فوقه علامة محطة سكك حديد مصر..

ولكن لأن الهابط من السيارة الصادمة يحمل فوق أكتافـــه رتبا ثقيلة..

تشير إلى أنه مسئول كبير في مرور القاهرة!

قيل إنه مساعد الوزير!

لم يقترب من الملقى على أسفلت الـــشارع أحـــــــد.. شرعت أنا في الاقتراب منه لجمع عظامه المتناثرة..

ما إن اقتربت منه، حتى أحاطتني الأذرع والعصي الغليظة.. وحالت دون ذلك.........

انطلقت من حولي بالأسئلة المبهمة..

صرخت بكل ما أملك من صوت وأقسمت علـــى كـــل الكتب السماوية أنني لا أعرفه..

غير أن النحاسة المعلقة على صدري تشبه النحاسة المثبتـــة على صدره..

مهما أوضحت لهم أنه مجرد تشابه نحاسات.. وأنه {يخلق من الشبه أربعين}

تبسّم من كان يُجري معي التحقيق.. بينما كانت عيون المضرج في دمائه في نهر الشارع عالقة على ظهر السيارة الرابضة بجوار الرصيف المقابل..

تقول: -

أولادي في حاجة إلى أجرة تعتيق مثل هذه النقلة من أسبوع مضى.



ريعان الشباب

قالت:-

كم أنت جميل وجذّاب..!!

لم ألتفت نحوها..

عاودت مرة أو مرتين.. لم أعقّب..

كررت مقولتها مرات ومرات عل مسامعي.. لم أكترث..

أطلقت لنفسها العنان و لم تقتصد..

مدت يدها نحو زندي تعبث كما تشاء.. لم أرتعد..

كانت عيناها تغوصان في مهجتي.. فلم أغادر أرضي ومطرحي.

قلت لها:

ماذا تريدين؟

(وأنا غير منتظر الجواب)!!

أدمامتي حقًا جميلة، وجذابة؟

أجـــيـــبني؟

وما معيار القبح عندك؟؟

أدركيني؟

وأنا مازلت أسائلها، وهي لا تجيب..

حتى همّت نحوي.. وكدت أن أهم نحوها..

وقبل أن يـــبوح الجبين بالقطر الدافق.. رحل عـــني آثـــار طيفها.

من بعـــدها.. إلى يوم الخامس من شهر إبريـــل في العـــام الرابع والستين من عمري..

لم أذق طعم النوم، وأنا رابـــض عنـــد عتبـــات رعونتـــها الطائشة..

ولم يعد الزمن الذي كان.

طائـران



....

أينما ذهبت بأرض الله..

قبل شروق الشمس يأتيني أحدهما..

يطلق صوته الرقراق في جوف السماء..

{وحـــــّـــدوا ربـــــكم}.

يفيض الدمع مني، وينشرح فؤادي..

وأبدأ يومي متهللا بشرًا ويزداد إيماني..

أعمل بكل جد، وتكثر أحلامي.

في أول الليل أخشى أن يزل خطوي..

ويضل لساني فأشقى..

وأتوه عن سُبل الهداية.

يأتيني الآخر وهو يغرّد..

{ الملك لك.. لك.. يا صاحب الملك }..

أنام ملء عيني، وأنا أردد..

(إن الذي فرض عليك هـــــــذا القـــرآن لـــرادك إلى ميعاد).

غريب في الحارة



كل صباح، كانت تنتظر على أحرّ من الجمر نداءات بائع (العجمية.. الفول المدمس والبليلة)..

كانت تجلس القرفصاء بجانب الجدار المنهدم عند ناصية الحارة.. باسطة يدها ناحية الفضاء الفسيح..

المارة من حولها يخافون لسانها الحارق.. يبتعدون عنها في سيرهم..

القليل منهم يلقي في حجرها الواسع ما تبقى لديه من كسرات خبز (تبركًا)، والأقل يضع في يدها بعض القروش الزهيدة (تيمنًا).

بائع (العجمية) يأخذ مكانه المعتاد عند فم الحارة مع أول شقشقة للنهار..

قبل أن يطلق نداءاته المتكررة في جو سماء الحارة.. يضع عند ركبة (أم شفيق) طبق الفول المحوج بالزيت الحار والبهارات الحريفة، وسطر العيش..

ترفع عينيها الدامعتين نحوه وهى تقول: -

(ألف مرة قلت لك اتوصى شوية) - يتركها ليطلق نداءاته الموروثة لتوقظ أهل (الحي)..

تتناول (أم شفيق) بعض اللقيمات التي تقيم أودها وتحتفظ بالكمية الأكبر لأولادها الخمسة اللذين توفى والدهم من خمسة أعوام.

صاحب المقهى الملاصق لجلستها دائمًا يمر عليها كل صباح.. يناغيها.. يتبرّك بها.. نهارك أبيض يا (أم شفيق) ويقدم لها كوب الشاي الغامق المعتبر..

لم تحرك ساكنًا..

على غير العادة اليوم تتطلع له بعيون حانية..

فجأة تعاجله بلسانها الذي يشبه المبرد.

(وسع كده.. ابعد شوية لما أشوف العربية اللي جاية دى بتاعة مين؟)..

يحملقان معًا في وقت واحد، وكل من استيقظ مــن نومــه بالحارة ينظر ناحية السيارة الفخمة القادمة..

تقف السيارة لتسد عرض الحارة.. فلا يستطيع أحد المرور.

يهبط من السيارة رجل طويل الــذراعين قــصير القامــة (مدكوك البنيّة).. يهبط من خلف (دريكسون) السيارة..

الرجل يرتدى بدلة جديدة غامقٌ لونُها.. لابد وأنه اشتراها من المحل الجديد الذي افتتح قريبًا بالشارع الكبير المطل علــى مركز شباب الحي..

خــط المكواة للبدلة لم ينكسر حرفه، ورابطة العنق تأكــل من ياقة القميص ووجنته (حتة).

الكل سأل في دهشة: من يكون الرجل؟؟

في ذات اللحظة تتعالى صيحات بائع (العجمية) بالنــداء.. نداءاته توقظ الهاجع والناجع والنائم على لحم بطنه..

و(أم شفيق) تمد البصر طولا وعرضًا كي تحل اللغز..

لغز الرجل القادم..

تتساءل بينها وبين نفسها.. من يكون الرجل؟

هل هو مخبر جديد بالقسم؟

تتراجع عن السؤال..!!

هيئة الرجل وملابسه الأنيقة والسيارة أكبر من مخبر!!

تعود.. ممكن يكون ضابط المباحث الجديد؟

لا.. لا..؟

ضباط المباحث لا يستيقظون في مثل هذه الساعة المبكرة!

ربما يكون ساكنا جديدا حل على (الحي)؟!

ولا هذا أيضًا..!!

لو كان؟ كنت أنا أول من يعرف.. كما أن حارتنا والحارات المتلاصقة حتى نهاية البصر تنضح بما فيها، ولا يوجد فيها (خُرم إبرة) يتنفّس منه شخص جديد..

تكمل واللقمة الأخيرة تقف في سقف حنكها.

حتى الأطفال المولودون حديثًا تضيق بهم حجور أمهاتهم من الضيق والغلاء الفاحش والبطالة القاتلة.

كما أن هيئة الرجل لا تتوافق مع أهل (الحي).

لابد وأنه زائر غريب!!

أو أنه من حي آخر ساقته عجلات سيارته خطأ!!

هذا هو الحدس الأرجح!!

وهي (تصر) باقي الطعام في جرابها الطويل جاء على بالها خاطر!! لم لا يكون هذا الرجل مفتش تموين؟

فجأة.........

تصرخ (أم شفيق) على غير العادة..

{لله يا محسنين لله.. لله}.

تتعجب العيون وكل من سمع صرخات أم شفيق!!

لابد وأن في الأمر شيئًا..

هذا نذير الخطر.. هذه صافرة الإنذار التي يطلقونها عندما يحيق بهم داع من خارج الحارة؟؟

عندها تذكر أهل الحي إخوانهم في أرض فلسطين المحتلة، وطريقة مقاومتهم للعدو الصهيوني..

وتذكر كبار السن من أهل الحي الأيام التي مرت بهم من سنين طويلة أيام الاحتلال الإنجليزي وما كانوا يطلقونه من أغاني كي ينتبهوا ولا ينتبه المحتل لما يخططون له.

الكل استرق السمع وتعلقت العيون بالرجل الغريب..

من يا ترى هذا القادم الغريب؟

نداءات بائع (العجمية) لم يتوقف هديرها، والنوافذ المغلقة تفتح مع العقول ترقب في نهم، والرجل (المدكوك) يخطو ناحية (عربة الفول المدمس) بخطوات ثابتة.. خطوات الواثق.

ما إن اقترب من محيط العربة نطق بصوت فخيم عال:-

(صباحك نادي يا عم عطية).

يتوقف دوران (الكّبشة) في بطن القدرة من فرط المفاجأة، و(عطية) يحدث نفسه:

كيف عرف اسمي؟

لابد وأني أصبحت من المشاهير!!

و لم لا؟

فالعالم اليوم سار قرية صغيرة!!

يرد..

نهارك سعيد يا سعادة (الباشا).. أأمر جنابك!!

!!.....................

من خلف الأكواب (المقلوبة) وصواني الشاي المرصوصة على نَصبة (القهوة) المواجهة لعربة الفول.. تتسلل نظرات (عم فؤاد) عامل (القهوة) إلى الرجل الواقف عند (عم عطية) - لم ينبس ببنت شفة- ينتظر ما سوف ينتهي إليه الأمر.

والسؤال الدائر بين الجميع.. من يكون؟

الصبايا والأمهات في النوافذ يسترقن السمع وعيونهن لا ترتفع من فوق الرجل الغريب وكأن الغريب يحمل وباء خطيرا..

يخافون أن يقتربن منه ومن عم (عطية) بأطباقهن الصدئة (المقشرة) التي كل ضلفة فيها أكبر من الريال الفضة فينفضح أمرهم ويُعرف أنهم من محدودى الدخل.

كل ما يدور في خلدهن مقدار ما سوف يشتريه هذا القادم الغريب، وينعين أنفسهن على ضياع فرصتهن اليوم في (عجمية) عم عطية.

فمن المؤكد أن هذا (الباشا الكبير) يملك من المال ما يمكنه من شراء ما في القدور كلها من فول وبليلة!!

يا بختك يا عم (عطية)

{باضت لك في القفص.. وراحت علينا خلاص}.

(أم شفيق) تضرب أخماسا في أسداس.. تتساءل:-

{معقول بيه كبير أد ده يسيب الدنيا كلها ويجى لحد حارتنا المنسية من أجل طبق فول؟}

فول الغلابة؟

آمال ولاد الحتة يروحوا فين؟

لابد في الأمر شيء؟

حتى (العجمية) بتاعة الفقرا مش ســـايبينها البـــهوات؟}.. تأكد للجميع أن الرجل ليس مأمور ضرائب ولا مفتش تموين.. مع أن صيحات (أم شفيق) لا تنقطع وتيرتها.. (لله يا محـــسنين لله.. لله).

الرجل (المدكوك) يشمر عن ساعده ويطلب من عم (عطية) طبق فول بالزيت الحار وفص ليمون وبصلاية كبيرة.

يضحك عم (عطية) ضحكة عالية.. {أهو كده الشغل ولا بلاش؟}.

حاضر.. تحت أمرك يا (باشا).. وراح يـــردد في الفـــضاء الفسيح بصوت أعلى من سابقه:-

{عااااجمية.. عجمييية الباشاوات.. يلا يا غجر.. راحـــت عليكم خلاص}..

الرجل (المدكوك) يطبق على طبق الفول والبصلاية وســـطر العيش.. ينسفه نسفا في دقائق معدودات وسط استغراب عـــم (عطية)!!

بعد أن أجهز الرحل على طبق الفول ورفع (كـــوز) المـــاء و(دلقه) في جوفه وكأنه يطفئ حريقة نارها مستعرة من أمـــد بعيد.. سار بخطوات واثقة ناحية الحجر المحـــاور لجلـــسة (أم شفيق).

ما إن استقر عليه، التفت بكامل وجهه ناحيتها..

بادرها، بابتسامة شاحبة.. وهي تحاول كشف ملامحه..

صباح الخير يا خالة (مبروكة).

استدارت(أم شفيق) بالكامل ناحيته.. وهي تؤكد لنفسها!!

هذا الصوت سمعته من قبل.. إني أعرفه.. تملأ عيونها مـــن الرحل..

فجأة تصك صدرها بكلتا يديها..

مين؟؟

(حامد) ابن سكينة أختي!!

ينيلك يا زفت الطين.

إيه اللي إنت عمله في نفسك ده؟؟

والله ما عرفتك يا منيل؟

منين كل ده؟؟

تخرج الكلمات من فم (حامد) المحشو برائحة الزيت الزاعق، ونكهة خُرط البصل الطافقة..

أنا عقبال أمالتك يا خالتي بشتغل سوّاق عند واحد بيه كبير قوى.. رجل أعمال أد الدنيا.

هنا تطلق (أم شفيق) ضحكة عالية..

ضحكة ملأت كل جحور (الحي) وأعادت الطمأنينة والأمن لأهله.

على الفور شخط (عم عطية) في آخر زبون كان يقف على عربة الفول المدمس وهو يقسم بكل الأيمان.

يقسم أنه لم يبع من قبل اليوم (كَبشة) واحدة من فول أو بليلة لـ(بيه أو باشا).. وأن كل زبائنه من محدودى الدخل المستحقين للدعم من الله قبل السادة البهوات الحكام.

في عـز الضهر



لم يعبأ بالملتفين من حوله.. ولا بكـــل المتظـــاهرين هنـــا وهناك..

في حركة خاطفة خلع كل ملابسه حتى الداخلية منـــها إلا من غلالة بسيطة كانت توارى جزءا من سوأته..

اندفع كالمغشي عليه إلى ما بين النهرين..

صمم على السباحة ولو ضد التيار..

لا يهمه إن كان غيره يجيد السباحة؟ أم لا؟

المهم أن يُعد المسرح جيدًا ويحشد الجمهور..

نعق في الأبواق في عز الضهر..

سمع له من سمع، وغاب عنه من غاب.

راح يضرب وجه الأرض بأيد عابسة غليظة..

اليابس منها والوارف على حد سواء..

لا شيء يهم.. لا الأطفال ولا دموع الثكالى تحت الجدران المنهدمة..

المهم براميل الزيت ولو في الخفاء..

في زحفه الجبار لتحقيق هدفه المنشود..

دهست عجلات ترسانته الحربية كل المعاني الإنسانية.. مع أول انحناءة لماء أحد النهرين..

كان هناك على الجانب الآخـــر، وفى قلـــب الـــصحراء الشاسعة مَن يؤكد أن مزاعمه واهية..

وأنٍ (فرس النهر) قابع على ركبتيه.. ينتظر الفرصة..

مهما طال الزمن ليعيد مجد الآباء..

لم يرتدع..

ولم تفتر عزيمته الاستعمارية..

ملأ الدنيا ضجيجًا وعويلا بصوت أشد قسوة..

ثم زأر "زأرة" لم يسمعها أحد سواه..

التف حول هيكله بعض المغاوير العملاء.. صـــفقوا كـــثيرًا حتى دمعت عيونهم بحارًا.. أغرقت معها كل ذويهم والشرفاء..

بينما كانت السماء تئن من كثـرة البـاكين، وجـدران السجون تعج بالأبرياء..

وعندما هوت على الأرض قوته.. كانت الأمـة ترفـل في لباس الخذي والعار..

بينما قادته وجنوده يحتمون بالبقعة الخضراء.

وصوتها ينعق.. يلف البلاد.. كل البلاد..

لقد صنعنا وطنًا جديدا.. ينعم سكانه بالمجد والديمقراطية.. ديمقراطية أولاد العم سام..



وصية أب

استهلال......

ونحن أطفال كنا نفرح.. عندما نلتم بعد صلاة العشاء أمام (عم فهيم)، نصغى لنوادره، وعيوننا مفتوحة عن آخرها.. النوم لا يقربها مهما بلغ بنا التعب..

في يوم أتذكره جيدًا، كنا قد انتهينا توًا من ضـــم (غـــــلة أرضنا) أنا وأبي قبل دخول الليل..

كان عمري وقتها لا يتجاوز العاشرة..

فرحت؛ لأني سأكون ضمن اللفيف المستمع لنوادر عم فهيم في هذه الليلة رغم إرهاقي وتعبي، فلن تفوتني نادرة من نوادره.

كان (عم فهيم) شيخا عجوزا، وجهه مكرمش من آثـــار طول الزمن.. طيب القلب.. لين الطباع.. حـــسن المنطـــق.. عطوفا.. كل واحد منا في بؤرة اهتمامه وكأن المجلس لم يضم سواه.

جلست بجوار ركبته اليمنى أستمع مصغيًا.

بدأ (عم فهيم) بالمقدمة المعتادة قبل سرد النادرة تلو الأخرى وأسهب في كان ياما كان، ثم أخذ يقول:-

ـ ١ ـ
(الـزِّمال)

في موسم الحصاد.. جاء رجل يسعى من خارج القريـــة.. يحمل على كتفه بعض{الأجولة الفارغة وشرشرتين}.. هـــبط على الديار قرابة العصر، وعند حلول الليل كان قد قرع بـــاب رجل داره على أطراف القرية بسيط الحال.

بعد موجبات الضيافة قال لمضيفه:-

أنا كما ترى قوى البنية أنعم الله علي بموفور الصحة، كما أني آلي أن أمتص عرق الأجير وظروف البلد كما تعلـــم تمـــر بضائقة نقدية ولا يوجد طريقة أمامنا لإنجاز أعمالنا غير المبادلة أو الزمال؟

فما رأيك؟

أزاملك في ضم قمحك غدًا على أن تزاملني في ضم محصولي بعد غد؟

ضحك الرجل البسيط وقال للرجل الساعي:

يا أخي أنا لا أملك قيراطا واحدا لأزرعه برسيما ولا قمحا ولا أحتكم على{منجل}!

فكيف تزاملني؟

قال له: -

إذن ننطلق غدًا سويًا نزامل من يطلب الزمال وسوف أعيرك {شرشرة} وأدفع أجرك (كيلة قمح) كاملة عندما يرد لي الزمال من ناتج قمحي.

وافق الرجل البسيط على الفكرة؛ لأنه يعلم أن أهل القرية لا يكترون عمالا نظير أجر، وأن السائد هو الزمال.. وهو لا يزامله أحد من أهل القرية لعلمهم بأنه لا يملك قيراطا أو حتى شرشرة.

استضافه للمبيت عنده وقضاء ليلته، وقدّم له الحفاوة والترحاب.

في الصباح الباكر ذهب ليوقظ الضيف، ليبدآ ما اعتزماه ليلة الأمس، بحث عنه في (القاعة) فلم يجده.. في وسط الدار.. على السطوح.. لم يجده، ولم يجد (نحاس) الدار ولا العنزة وأولادها الثلاثة..

جلس الرجل بسيط الحال يلعن الزمال والضم و(كيلة) القمح والشرشة وتأكد أن من استضافه بالأمس ما هو إلا نصاب.

— ٢ —

(جميزة فرفور)

لا غنى لأهل (العزبة) قليلة الدور والسكان عن (كفر شحاتة) الذي يبعد عنها بمقدار كيلو ونصف الكيلو متر.. فكل الخدمات متوافرة هناك.. الدكاكين وباعة القماش وباعة الملح والعسل والخميرة بيرة.. كل شيء هناك حتى الكتاتيب والمدارس الإلزامية هناك، والمشاوير لا ينقطع لها حبل من أهل (العزبة وكفر شحاتة).

الترعة الضيقة الواصلة بينهما على جانبيها الشجر والسواقى والحكايا القديمة وكذا (جميزة فرفور)..

علامات مميزة تدور حولها الحكايا والأساطير من جدود الأجداد حتى الآن، وبخاصة (جميزة فرفور) التي تتوسط المسافة بين الكفر والعزبة.. الجميزة كانت تحتها (طرمبة ومصلية)، وبالقرب منها (الساقية المحروقة) ساقية أولاد سلامة.. قصص كثيرة تروى عنها.

يقال:-

إنه قديمًا قتل {المدعو غباشى فرفور} تحت الجميزة في خناقة على فرق (الحد) بين أرضه وأرض (ولاد البيومى).

ليه وليه { (غباشي فرفور) قال لـــ(بركات البيومى) إنـــت أعمى مش شايف الحد جاى عندنا أد إيه.. بس وكـــان مـــا كان..

رفع (بركات) الفأس التي كانت في إيده ونزل بها فوق رأس (غباشي فرفور) فلقها نصفين، ومن يومها يحضر عفريت (ابن فرفور) ويخرج لكل عابر الطريق بمفرده بالليـــل.. العفريـــت يتقمص شخصيات مختلفة.

مرة على هيئة رجل يقود دراجة وأنفاسه متقطعـــة، ومـــرة على هيئة رجل يستحم في الترعة فيفيض الماء ويغرق الـــسكة، ومرة أخرى على هيئة امرأة جميلة تمشط شعرها الطويل علـــى شط الترعة وعيونها حمراء يبك منها الدم وهى تنـــادى باســـم الماشي من تحت الجميزة يا.... و....

كان (عم فهـــيم) يـــسرد القـــصة والأولاد (يكـــشّون) ويتداخلون في بعضهم بعضا، وشعر رأسهم يقف من الخوف.

فجأة يقف (حمدي) ابن عطية الطحاوي وهو يقسم:

والله العظيم (صح ـــ الصح) الحكاية دى حقيقية ١٠٠% {الجنية} طلعت لأبويا ليلة إمبارح وهو راجع من عند خـــالي في الكَفْر، ومن ساعتها وهو راقد في مستشفى المركز..

يضحك (عم فهيم) من طيبة الأولاد وسذاجتهم.

وأنا وأنت نحتفظ لأنفسنا بالمعنى الذي كان يقصده (عمهم فهيم).. فاليوم أصبحنا في عالم الكمبيوتر والانترنت ونعلم جيدًا بأنه لا توجد عفاريت { وما عفريت إلا بني آدم}.

***

— ٣ —

سندس وعم أمين

كان (عم أمين) معتاد الجلوس بجوار الكوبري الذي يتوسّط ديار القرية، ولأنه كان طاعنا في السن، كانت نظراته ثاقبة وكان عليما بالأصول والأنساب..

معظم الزيجات التي تمت في الناحية كلها كانت بمشورة منه عدا زواج (سندس) بنت الحاج {سعيد} القمّاش.

كانت (سندس) وحيدة أبيها، وكان أبوها (سعيد) يجوب الأسواق ببضاعته فوق دابته العفية.. لم يستشر أحدا من كبراء القرية ولا حتى (عم أمين) في زوج ابنته.. فهو ابن سوق يلف القرى والكفور ويخالط أناسا أكثر منهم.

زوجها (سعيد) القماش لفتى يقال إنه ابن عمدة (كفر الروضة).. يوم زفاف (سندس) كان الفرح والزينات والموائد التي لا قبل لأحد من الجهة بمثلها.. قالت بعض نساء القرية {آدى النسب ولا بلاش.. مش جوازات عم أمين السّكة}.

أسرها (عم أمين) في نفسه و لم يعقب إلا بعبارة واحدة (النصيب غلاب)..

سبعة أشهر وكانت (سندس) في دار أبيها..

قالت نفس النسوة إنها على وشك الوضع.. جاءت لتنعم في عز أبيها..

وضعت (سندس) ولدا يفوق جمال أمه.. مر عام على الولادة و لم يحضر ابن العمدة ليطل على زوجته وابنه.

لاحظ أهل القرية أن (سعيد القماش) قصّر دوران تجارته وطوافه على القرية والقرى المجاورة فقط..

تساءلوا عن السبب؟

قالوا حكم السن!

لعبت الأفكار في رأس (عم أمين).. لم يقتنع بالرد!

خرج لسوق المركز وقليلا ما يفعلها.

عند سوق الجمال أجلس رجلا وقورا أمامه.. كان الرجل قد فرغ من بيع (بكر) كان معه.

سأله:-

إنت من كفر الروضة؟

أجاب نعم.

أكمل (عم أمين) سؤاله: -

ماذا تقول في ابن عمدتكم؟

بهت الرجل من السؤال!

بتقول إيه يا عم؟

عمدة بلدنا ربنا لم يرزقه بصبيان!!

عمدة بلدنا له بنتان.. البنتان متزوجتان من أبناء عمهما.

تتسع عينا (عم أمين) عن آخرها.

يستطرد:-

ربما يكون ابن شيخ البلد؟

يقاطعه الرجل.

عمن تسأل يا شيخ بالتحديد؟

عن العمدة صلاح وابنه خالد؟

يضحك الرجل الغريب ويكمل..

تقصد خالد صلاح العمدة؟

يرد (عم أمين) بسرعة بالضبط هو ذاك.

يكمل الرجل..........

يا (عم) العمدة ده لقب عائلة وليس كما تظن!!

{أما عن خالد فهو كان سافر كام سـنة لبلـد خليجـى وجاب قرشين حلوين من برّه.. أصله كان بيشتغل في طايفـة المعمار.. بس لما أبوه (صلاح.. سمسار) المواشى مات وخلصت الفلوس انفض المولد.

{ ورجعت ريما لــــ...................... }.

.. لكن حضرتك بتسأل ليه يا عم؟

كمم (عم أمين) فمه بعد أن كان قد قال:-

{ قسمه ونصيب.. والنصيب غلاب}.

من يومها لم يتدخل (عم أمين) في زيجة مطلقًا بعد التحول الخطير الذي ضرب المجتمع في مقتل، وأصبح السلطان الغالـب هو مقياس المادة.

***

— ٤ —

عشوبة

كانت (عشوبة) تجرى بعــزم المــشوار.. تــسابق ظلــها الخصيب.. الأحلام والآمال تشع من بين أناملها العرقانة بحلاوة قيام الثورة.. تهتف في كل الأبواق {أنا الشعب.. أنا الشعب، وإرادة الشعب أقوى من كل الملوك والحكام.. أنا الأيام}.

بعد انحناءات كثيرة حققت فيها انتــصارات وإخفاقــات عديدة وعند آخر عطفة تطل على الشرق توقف عدوها فجأة.

نظرت فيما حولها.. لم تجد الخيال الذي كانت تسابقه ولا الآمال التي كانت تمتطيها.

مكثت في مكانها تبحث في الأمام والخلف وعلى الجانبين.. لا أثر للخيال.. مع أن الشمس كان نورها ساطعا يصم الآذان.

لم تيأس (عشوبة).

استراحت هنينة والتقطت حبل أنفاسها المقطوع..

راجعت كل الخرائط والكنتورات.. مع أول زفرة شــهيق خرجت وكانت جاثمة نصف قرن من الزمان علــى صــدرها سمعت من يقول من وراء الحجب:

يا هذا..

{إن الانحناءات كلها خطأ، وخطأ فادح.. الطريق الطريق الاستقامة.. الاستقامة.. أمسك عليك زمامك}.

ولأن (عشوبة) لا تسمع لغيرها وتعشق فن القيادة أبصرت كل الطرق الممتدة أمامها، وعندما وقع بصرها وكان محاذيا لخط الأرض انطلقت صوب الغرب مندفعة دون إبطاء..

كان الظل بمقدار ورقة ساقطة من أعلى فرع بشجرة (كارز) الورقة من فئة الآحاد الدولارات.. خضارها فاقع.. كلما وسعت خطاها تمدد الظل أمامها وخلفها وعلى جانبيها وتسلق الجدران الصماء دون انحدار.

فرحت (عشوبة) صورتها اخترقت كل النوافذ والأبواب المغلقة.

تضحك (عشوبة) ويرن صوتها ويجلجل في الفراغ:-

{أنا من سبق ظله وقع خطاه}.

والظل يستفحل هنا وهناك..

بعد فترة كانت (عشوبة) ترقد في العراء تشكو آلام الشلل وتباريح الداء العضال.. لا تستطيع تحديد منازل المشرق ولا أماكن الغروب، ولا تستطلع حتى الهلال.

نوادر.. عم فهيم



عندما حط الليل وأرخى سدوله على ربوع قريتنا النائية وناحت الغربان فوق شواشي الشجر.. كانت النساء والصبايا متشحات بالسواد ينتحبن لحد العويل والصراخ..

ساعات طوال مرت على أهل القرية كالدهر منذ وصول الخبر المشئوم.. الكل وقع عليه النبأ كالصاعقة رجالا ونساء حتى الشباب والصبايا، الجميع ينتظر على السّبرين.

ينتظر عودة الغائب الشهيد.. النساء والصبايا في بّر والرجال والغلمان في بـّر على امتداد البصر بطول البلاد وعرضها من الجنوب إلى الشمال.. لا يفصل بينهم سوى كوبرى أسمنتي عتيق.

الكوبري يقسم الديار إلى نصفين، أحدهما شرقي والآخر غربي باتساع الصحراء المترامية الأطراف.

الحوارات الهامسة تدغدغ القلوب الصحيحة، والسؤال الطافق على كل الشفاه يتحد في جزئياته المتناثرة؟

{من فعلها؟

مش معقول! خسارة وألف خسارة!؟}.

في عز الخراطي في نوبة من البكاء المكتوم لمحت يد

الشيخ الوقور الحاج (حسن الشوادفى) تعبث في هشيم الأرض من تحتي ونحن ننتظر القادم من بعيد.

فجأة قبض الشيخ قبضة من تراب الأرض.. نخلها في كفه.. لم يبق من الحفنة في راحة يده غير حصوات ست.

رسم منها شكلا على هيئة مثلثين متداخلين، ثم رفع رأسه المثقل ناحيتي.. رمقني بطرف عينيه المتحجرة فيهما بحار من الدموع المحبوسة.. لم تطل النظرة.. بادلني وبادلته نظرة بنظرة.

هالني لون كاسات الدم التي تملأ عينيه.. وجدتني أقول بحروف متلعثمة:

هون عليك يا عماه.. قدر ومكتوب!!

فإذ بالشيخ الوقور في وسط هذا الحشد الغفير يرفع يده ويلطمني على صدري لطمة اختلفت لها استقامة ضلوعي، ثم

عاد وهزني بعنف.. هزة ارتجت لها مأذنة جامع (الشوادفية) في آخر بقعة من ديار القرية.. وكذا مآذن الوطن على اتساعه..

هزة أعادت لي وعيي الذي فقدته للحظات منذ وصل إلى مسامعي خبر موت ابنه ووحيده دكتور (مازن).

رجعت بي الذاكرة لسنين دراستنا بجامعة الإسكندرية ومعامل كلية العلوم، وكيف حصل على منحة الدراسات العليا بإحدى الجامعات الأمريكية؟

ومدى نبوغه في تحصيل أدق العلوم هناك؟؟

فنحن لم نفترق في يوم من الأيام، رغم تباعد المسافات بيننا وإن كنا نختلف في كثير من الطباع والخصال، وأشهد -كما تشهد معي دعوات الأرامل والأيتام وصدى رجع الصدقات الجارية في ربوع وأزقة دروب قريتنا النائية والقرى المجاورة- أن (مازن الشوادفي) كان عالما يحسن الإيمان بالله.

تطلّع الشيخ (حسن) ناحيتي ثانية ونظر إلى ما كان بيدي، وعض على نواجذه حتى لا ينتبه من كانوا بجوارنا، وهو حشد ليس له مثيل لما سوف يصرح به..

ربت كتفي ولم يطأطئ الرأس.. علق ناظريه في جو السماء وعاد يسبح على مسبحته المعلقة في رقبته.. بسرعة البرق كنت

قد عرفت ما كان يريد أن يفضي به.. صمت للحظة.. وعدت أسترجع شكل الحصوات الست في راحة (الشيخ) وإلى أي شيء كانت ترمز.

لم أدهش من حدة ذكاء الرجل، قدر اندهاشي لقوة وكزته بصدري، تعجّبت!!

الشيخ تجاوز الخامسة والثمانين من عمره ويمتلك هذه الصلابة والقوه وحدة الذكاء.

وجدت أقدامي تحملني وتسير بي بخطوات ثابتة وعفية ناحية مندوب رئاسة الجمهورية في التعازي، وأضع بين يديه على مرأى من كل المحتشدين، وصية أب مدعومة بطلب القصاص من اليد الآثمة التي اغتالت الشهيد العالم (مازن حسن الشوادفي).

الفهرس

